عيتا الشعب: عامرة أم إعادة إعمار

ليس سهلا التحدث عن إعادة الإعمار بعد الحرب. من الصعب معرفة أين تبدأ. إن عملية الكتابة عن هذا الموضوع ليست مختلفة كثيرا عن العملية نفسها، فالمشهد يمتلئ بمزيج من دمار، غضب، ألم، وظلم حيث يتملك بداية الإحساس والعقل.

من أين البداية؟ في البداية، الكل مشغول بلملة أغراضهم وذكرياتهم من بين الركام. هناك من يجد الشجاعة والبدء بالبحث عمّا تبقى من ماضيه. حالما يكتشف أن هناك من يعتمد عليه، ويجد قوة جديدة في مسح الغبار عن الصور القديمة، وما تبقى من مقتنيات، ويختار الحياة. ويختار البناء من جديد.

من الصعب البدء بالكتابة عمّا حدث وما يحدث. لكننا نمد أيدينا إلى أقلامنا. ونختار الكتابة.. من جديد.

يمكن اعتبار أن هذا النص يحوي نصين. الأول بتتابع هذه الكلمات، والثاني يترجّل وينتقل إلى «كادر».

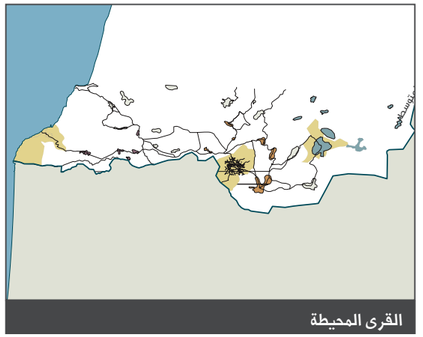

القرى المحيطة

ثمة فهم بأن عملية إعادة الإعمار يمكنها أن تكون مدمرة وعملية تراجيدية بمعاني كثيرة. ومع ذلك، فان مثل هذه المعرفة لا توفر تحضيرا كافيا لأي طرف، ناشط، مخطط أو مواطن مشارك بالعملية من هنا أو هناك.

وفيما من السهل النسيان، في خضم الفوضى، الفساد والمصالح الشخصية، بأن كل ذلك حدث بسبب هجوم، إجتياح وحرب. وبالمثل، فان من الهام التذكر بأن في لبنان مثلا، وفي سياق أعم في منطقتنا كما في العالم، بأن عملية إعادة البناء في أي سياق خاص سوف تعكس إستمرارية، في السياسة والتوجهات والممارسات للدولة، للمخططين، وللنظام بطريقة أو أخرى. لكن، في الوقت ذاته، يبقى التساؤل مفتوحا حول مدى الإستمرارية وفعاليتها. فالحرب ومقاومة العدوان يحدثان تغيرّات، قد تزداد هوامش المقاومة أو تضيق، وتختل موازين سابقة، وتدخل مجموعات جديدة وتخرج أخرى، وداخل المجموعة الواحدة تحدث تغيرات. فالحرب هي أيضا صدمة فجائية لها نتائجها المتعددة، والتي ستنعكس على التخطيط وإعادة البناء ما بعدها.

في المعنى الأول، في تخطيط ما قبل الحرب هناك مؤسسات سياسية ومهنية تهمّش البعض، تتجاوز ثقافتنا وتراثنا الحديثين، وتعطي أولوية لأنظمة جديدة مطهرة من تاريخنا وممارساتنا الإجتماعية. لذا، قد لا يبدو مستغربا بأن ذلك سيحدث في إعمار ما بعد الحرب.

في المعنى الثاني تتأكد الدهشة، أو المفاجأة. في الدهشة حياة. وفي الفراغ المفاجئ الذي يشبه الفراغ المتولد عن صاروخ، فإنه يترك إحساسا قريبا من الموت. إذا كانت الدهشة بحياة تتجاوز القبيح، فهي جميلة. والحياة بلا دهشة رتيبة. وإن كانت بالعودة فجأة إلى تفريغ كل مشاعر التضامن خلال الحرب والتغيرّ في النفسية، فإن أقل ما يمكن القول عنه بأنه صعب التحمل.

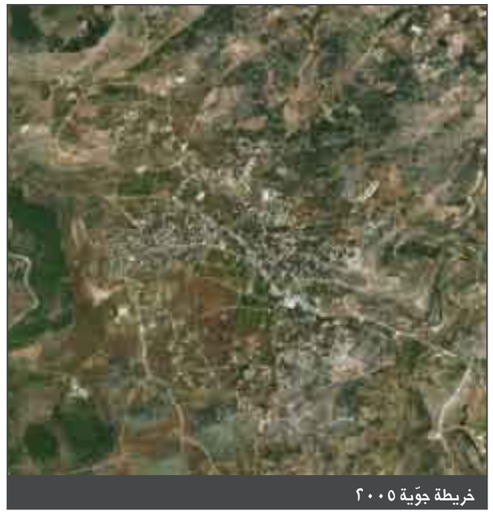

خريطة جوّية ٢٠٠٥

عيتا الشعب قبل التحرير

وظهرت «اسرائيل»...

صار جار عيتا الشعب دولة الإستيطان في العام ١٩٤٨. دُمّرت وهجرت معظم القرى الفلسطينية التي كانت تملك علاقات إجتماعية وإقتصادية قوية مع عيتا الشعب ومحيطها قبل العام ١٩٤٨، وشيّدت مستوطنات جديدة. وصارت عيتا الشعب قرية حدودية نائية بعد أن كان إمتدادها جنوبا أكثر من صور مثلا. ومثلما دمرت أو هجرت غالبية القرى الفلسطينية شمال فلسطين، فإن القرى اللبنانية الحدودية جنوبا تعرضت لمحاولات مشابهة من التدمير والتهجير والإحتلال ومنذ ذلك التاريخ حتى الان (قرى هجرت في العام ١٩٤٨، وحانين، مارون الراس، بنت جبيل، الخيام مثلا في السبعينيات، وحاليا عيناتا، صديقين، بنت جبيل ومارون الراس مجددا، ومنها عيتا الشعب) وإن بحدّة أقل من مثيلاتها الفلسطينية بسبب الاستيطان هناك. ثمة إستمرارية في السياسات الإسرائيلية منذ العام ١٩٤٨. صادرت دولة الإستيطان أراض زراعية لعيتا الشعب. ففي العام ١٩٤٨ إحتلت أكثر من ٢٠٠٠ دونم (بعض وثائق الأرضي موجودة لدى اهالي). كانت إسرائيل تلتهمهم رويدا رويدا حتى ما بعد العام ١٩٦٧، أحيانا بالجملة وفي أحيان أخرى بالمفرق، وتقترب الحدود. ولذلك فإن أراضي عيتا الشعب العقارية محدودة مقارنة بالقرى المحيطة بها رغم أن عدد سكانها من الأكبر. وقد رسم الفريق اللبناني تحفظا على الخط الأزرق في جوار عيتا الشعب.

كانت عيتا الشعب ومحيطها تتعرض يوميا للقصف في مراحل من السبعينيات، ثم تعرضت لإحتلال إسرائيلي لمدة ٢٢ عاما، وهي مرحلة، منذ بداية السبعينيات، حافلة بالمقاومة. بين العامين ١٩٧٠-١٩٧٢، دمّر الكوماندوس الإسرائيلي سبعة بيوت في عيتا الشعب منها مخفر الجيش. في حوار مع عائلة أبو سميح سرور حول إعادة بناء بيتهم بعد تدميره من الكوماندوس الإسرائيلي، قال بأن والده كان يريد إعادة بناءه بسرعة كيفما إتفق، بينما كان هو يريد التجديد فيه. قال والده: «رح يرجعوا الإسرائيلية يدمروه، وتبيّن أن معه حق بعد ٢٥ سنة!». بيته في البلدة القديمة ومن البيوت التي دمرت في حرب تموز الأخيرة. والده كان يملك أرضا زراعية إلتهمت منها إسرائيل، وقبل ذلك سجنه البريطانيون في فلسطين حيث كان يجول ويعمل، ففرّ من السجن، ثم سجنه الإسرائيليون لاحقا. كان على عراك دائم على أرضه. يزيح الإسرائيليون الحدود من هنا فيزيحها بعد ذلك بدوره، وهكذا إلى أن زرع لهم لغما.

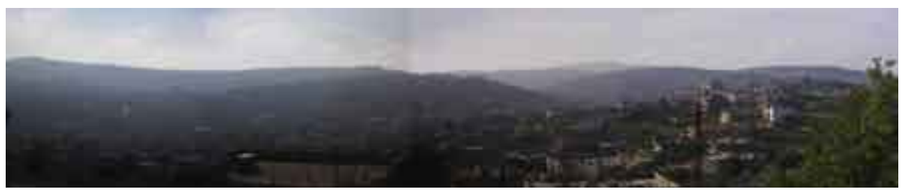

انعكاس الممارسة الاجتماعية في البناء تاريخياً وتأثره بالحالة السياسية

حتى أوائل الخمسينيات كانت عيتا الشعب عمرانيا ممتدة في حدود بلدتها التاريخية الحالية، حيث كانت حدود بلدة رومانية في السابق كما يبدو، ويظهر آثار تاريخ البلدة اثر الفجوات العميقة التي احدثتها الصواريخ الاسرائيلية والتي أظهرت معاصر زيت تاريخية. وكانت البيوت بداية من الطين والتبن، ثم الحجر الصخري العريض (طاقين من الحجارة). وتستخدم اسقف البيوت لتجميع مياه المطر حيث يحتفظ كل بيت ببئر على الأقل، بعضها روماني قديم. وتتداخل الأراضي الزراعية مع البيوت، حيث تزرع مشاتل الدخان في بعض الحواكير والأراضي الزراعية المجاورة قبل نقلها إلى الأراضي الزراعية الأبعد. ثم يعلق التبغ داخل غرف البيوت، ويصفط ضمن عمل جماعي في الأسرة، ويوضع في ما يسمى بالمرطب تحت الأرض في ساحات البيوت. فالتبغ جزء أساسي من عمران البيوت والحياة الإقتصادية.

وكبقية البلدات التاريخية، فإن الطرقات ذات تعرجات، وغير عريضة، كما أنها إمتدادات إجتماعية للبيوت. ومنذ الخمسينيات، بدأت ساحة الضيعة الرئيسية بالخروج إلى حدودها وكوصل مع بقية عيتا، عبر ساحتي الكاراج والحسينية حيث النشاطات الإجتماعية والثقافية والجامعة تجري فيها، وبدأت عيتا الشعب الإنتشار مع التلال، وبإتجاه الطريق العام الواصل بين قريتي رميش والقوزح.

خلال الإحتلال الإسرائيلي جرى تهميش برك مياه الجمع[1]. كما بدأ التمدد نحو الأراضي الزراعية عبر الطرقات المعبّدة، وبدأ مركز البلدة ينتقل نحو الطريق العام حيث مبنى البلدية السابق. بعد التحرير في العام ٢٠٠٠، وخروج كثير من سجناء الخيام والمنفيين، ظهرت فورة بناء في عيتا الشعب دون توجهات تخص المواضيع التخطيطية المختلفة فيها. ولذلك إمتد البناء وتشتت، وبدأ تهدد الأراضي الزراعية يصبح موضوعا جدياً. فعيتا الشعب تعتمد على الزراعة بشكل كبير حيث يعمل في زراعة التبغ (المدعوم من الدولة عبر إحتكار التبغ) قرابة ٨٠٪ من أهالي عيتا الشعب. لكن بقيت عيتا الشعب عموما تبني على التلال محافظة على الأراضي الزراعية، وصار البناء يمتد على تلالها. وفي عيتا الشعب علاقة تكاملية وجميلة بين الأراضي الزراعية والعمران، إبتداءا من البيت وحواكيره وحتى الحقل.

[1] هي برك عامة تتجمع فيها مياه الشتاء، ويستخدمها المزارعين للري خاصة في أيام الصيف. وأراضي برك مياه الجمع ملك عام.

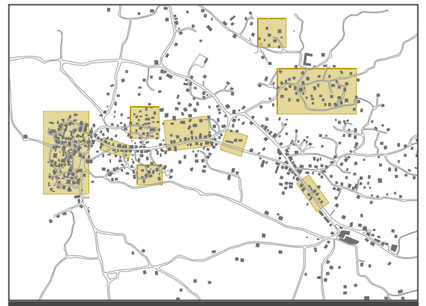

مناطق كثيفة الدمار

أولا، ماذا يريد المخطط الإسرائيلي؟

• أول القضايا هو تشخيص ما تريده إسرائيل. لقد أرادت بقصفها المنهج للبيوت، وبنشرها لكمية كبيرة من القنابل العنقودية، وخصوصا في الأيام الأخيرة من الحرب، حيث ترافق في الفترة ذاتها جرف حارة بأكلمها، ولولا عنف المقاومة لجرفت أجزاء أخرى. كل ذلك يعكس مؤشرات قوية حول نية إسرائيل إلحاق عيتا الشعب ببقية القرى الحدودية المفرغة من سكانها.

وقد عمدت إسرائيل إلى تبني سياسة الأحزمة العازلة في المناطق الحدودية لتفريغ سكانها. مثلا، في الجانب الحدودي بين رفح في قطاع غزة ومصر، أقدمت إسرائيل على إزالة أجزاء كبيرة من رفح ومخيمها تحديدا، وهي المنطقة العضوية المتشابكة، لتتمكن من السيطرة على المناطق الحدودية.

• ثاني القضايا هو أن تمركز الحرب في عيتا الشعب كان في بلدتها القديمة، وليس مصادفة أن الحارة التحتا في البلدة القديمة هي التي جرفت، وهي عملية مستمرة منذ العام ١٩٧٠ حيث دمرّ الكوماندوس الإسرائيلي بيوتا فيها، والآن يجري جرفها بالكامل. وهي مهد المقاومة التي أوقعت عشرات القتلى الإسرائيليين دون مبالغة (يقدّرها البعض بحوالي ٤٨ قتيلا عدا عن الجرحى، مقابل ١٨ شهيدا مدنيا وعسكريا من عيتا الشعب أساسا).

في الفترة الأخيرة من العدوان الإسرائيلي، جرف قرابة ستة عشر بيتا في الحارة التحتا من قبل الجرافات الاسرائيلية دي-٩ كاتربيللر التي لم تتمكن من متابعة تقدمها بفضل المقاومة العنيفة التي واجهتها هناك. أما في الطرف الاخر من البلدة القديمة، في الحارة الفوقا، فقد دخلت جرافة إسرائيلية تتبعها دبابة كما أشارت روايات عامة، لكن المقاومة العنيفة، وتدمير الجرافة التي كانت تفتح الطريق للدبابة التي واجهت صعوبة في دخول الأزقة، والكمائن التي تعرضت لها أكثر من مجموعة إسرائيلية هناك بحسب روايات مختلفة، أدّت الى تراجع التوغل الاسرائيلي، مما وفّر الحماية لبيوتها هناك من الجرف. فعزيمة المقاوم وايمانه عززهما، حصّنهما وحضنهما الطابع المقاوم للأحياء القديمة.

إن هذه الأحياء، ذات الشوارع والأزقة التي لا تتسع في كثير من الأحياء لأكثر من عبور سيّارة، تمثل أحياء مقاومة بأكملها. في المعركة الحالية، عدا عن إطلال أحياء البلدة القديمة لعيتا الشعب على مواقع إسرائيلية، حاول الاسرائيليون تحطيم المقاومة بجرف هذه الأحياء وكسر المقاومة فيها، فيمكن لاحقا إحتلال البلدة بأكملها حيث تصبح البيوت والمساحات أكثر إتساعا وإنتظاما مقارنة بالزورايب والأزقة التي شيّدت بيتا الى جانب بيت، وفوقه ومتكأ عليه، على مدى أكثر من ٢٥٠ سنة. إن التاريخ والعلاقات الإجتماعية التي كانت قائمة على مدى التاريخ المتجسّدة بالبناء المعماري وتنظيمه هي بتكوينها الأساسي جزء من مقاومة هذه الأحياء والبلدات، وليست على طريقة المستوطنات الإسرائيلية المصطنعة، وخصوصا بصفتها ذات التنظيم الفوقي الدقيق. لذا، كانت المقاومة الأشرس تنطلق من هذه الأحياء في الحرب الأخيرة، وبدت نقطة تجمع المقاومين من الأماكن المختلفة.

• ثالث القضايا المتعلقة بإسرائيل هي أنها خطر مستقبلي، وإمكانية مواجهة اسرائيل مجدداً دائما موجودة، إما استنادا لانعكاس جو عام منبثق عن ذاكرة جماعية لما تمثّله «اسرائيل»، أو استنادا لمحللين سياسيين. كثيرا وتكرارا تكون تساؤلات الناس: هل هناك حرب جديدة؟ وأحيانا يكون السؤال: متى الحرب الجديدة؟! علما أن الجيش الإسرائيلي يقوم بإستفزازات يومية هناك (وهو ما يغيب بالإحساس المباشر عن كثير من سكان المناطق اللبنانية الأخرى شمالا).

دراسة في سياسة اسرائيل

كشف باحث إسرائيلي (إيال سيفان)، معتمد على مقابلات مع ضباط من الجيش الاسرائيلي (منها مقابلة مع الضابط المسؤول عن إخلاء المستوطنات في قطاع غزة)، عن جوانب هامة من تفكير الجيش الإسرائيلي في التعامل مع الأماكن والأحياء القديمة خلال إجتياح البلدة القديمة لنابلس ومخيم جنين. قال الضابط: «فهم جيش الدفاع الاسرائيلي المعركة في نابلس كمعركة متعلقة بالحيّز المكاني». يقوم ضباط بمتابعة دراساتهم الأكاديمية في جامعات إسرائيلية من أجل فهم كيف يفكر السكان في الأحياء القديمة والمقاومون المتحمين فيها بالحيّ والزاروب والشبّاك والباب، وكيف يحاول الإسرائيليون بدورهم إعادة تعريف هذه الأماكن ليقابل تعريفهم الجديد لها تعريف السكان والمقاومين لهذه الأماكن. فمثلا، صار الإسرائيليون يعتمدون سياسة الحائط، وحمل ما يسمونه «عدّة الشغل» من أدوات يتمكنون من خلالها من فتح ممرّ في غرفة النوم أو الصالون، ليوفروا مداخل لهم غير التي يتوقعها المقاومون. أوضحت الدراسة بأن الجيش الإسرائيلي يعيد تكييف نفسه، ويقلل من جموده، إعتمادا على مواجهات متعلقة بحرب الشوارع في الأحياء القديمة.

من جهة ثانية، وكما أوضحت دراسة أخرى، فبسبب صعوبات كثيرة تتعلق بفهم هذه الأحياء من قبل الجيش الإسرائيلي، وما يتكبدونه من خسائر كبيرة في محاولات التوغل، فإن هناك سياسة أخرى صار يعتمدها. تعدّ سياسة جرف البيوت والأحياء سياسة إسرائيلية قديمة، لكن الجديد فيها هو إعتمادها كإستراتيجية من قبل الجيش الاسرائيلي، وبالتالي تكثيف إستخدامها. في إجتياح نيسان ٢٠٠٢ للاراضي الفلسطينية، جرى جرف أحياء بأكملها من قبل الجيش الإسرائيلي كتكثيف لسياسات سابقة، خصوصا في البلدة القديمة لنابلس وفي مخيم جنين، إضافة الى مناطق عديدة أخرى. في العام ٢٠٠٠، أعلن رئيس أركان إسرائيلي بأن جرافة «دي ٩ كاتربيلرهي سلاح إستراتيجي هنا [في الأراضي الفلسطينية]». عملياً، في الفترة بين الأعوام ٢٠٠٠ و ٢٠٠٣ فقط، جرف أكثر من ٤٠٠٠ منزل، مقارنة بجرف أكثر من ٧٠٠٠ منزل لأكثر من ٣ عقود بين العامين ١٩٦٧ و٢٠٠٢. (ستيفن غراعام، ٢٠٠٥).

وكانت هذه السياسة قد أتبعت في بلدات لبنانية مختلفة، وعلى فترات متلاحقة. وفي الحرب الأخيرة، كانت أحياء بأكملها، وخصوصا البلدات القديمة لقرى جنوبية، تتعرض للجرف أو التدمير المنهجي من قبل الاسرائيليين.

ثانيا، ماذا يريد المخططون المحليون؟

رفع الرئيس جمال عبد الناصر شعار «إزالة آثار العدوان» بعد هزيمة العام ١٩٦٧. ورفع السيد حسن نصر الله مقولة بأن الحفاظ على النصر هو أصعب من النصر نفسه إثر الحرب مباشرة. وأعلن الرئيس فؤاد السنيورة لبنان بلداً منكوباً. ورفعت الدولة المانحة لإعادة البناء شعار إزالة آثار العدوان الإسرائيلي كما هو معلق في مكتبها الإستشاري. فما هي ترجمة هذه المقولات على أرض الواقع بعد معركة عيتا الشعب التي كسرت الإسرائيليين، وساهمت بتغيير موازين القوى السياسية وقت الحرب الإسرائيلية. ومن مخلفات هذه الحرب التي يجابه بها ويتعامل معها الأهالي يومياً: ٢١ شهيداً مدنياً ومقاوماً (مقابل عشرات القتلى والجرحى الإسرائيليين)، وقرابة ١٣٠٠ بيتاً مقصوفاً قصفاً عنيفاً ومتوسطاً وطفيفاً، وذكريات كثيرة، وتمزقاً إجتماعي مكاني، وخسائر زراعية كبيرة من شجر زيتون (يزيد عمره عن الألف عام) إلى تلف محاصيل زراعية، في بلدة يبلغ عدد سكانها، المقيمين فيها صيفاً شتاءاً، قرابة الـ ٩٠٠٠ شخص يعتمد غالبيتهم على الزراعة، وخصوصاً التبغ.

و رغم أن الحرب ومقاومة الإسرائيليين أوجدت روابط تضامن هائلة بين السكان وقتها برغم أوضاع يصعب وصفها خلالها من نقص حاد في الأكل والماء والنوم وحتى غسل الوجه والجسم، ولجوء، وقصف عنيف وموت أحبّة وخوف وتدمير منازل وبكاء أطفال، فيمكن القول أن التدمير وآليات ما بعد الحرب أوجدت ضعفاً وتشتتاً لدى كثير من السكان. صار الضعف سمة أمام البيت المهدوم وغياب الوضوح والتواصل. إن هذا الجو الجماعي التضامني، والحاضن للمقاومة، في أصعب الظروف وقت الحرب صار تشتتاً فردياً بعدها. لماذا؟ هذا السؤال هو برسم كل المعنيين.

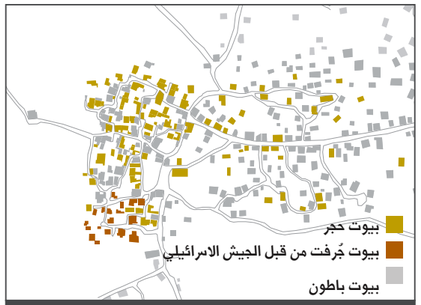

بيوت ذات طابع تراثي

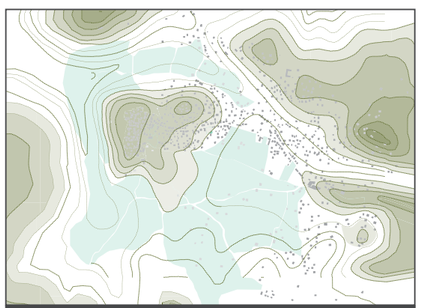
طوبوغرافيا – مناطق زراعية

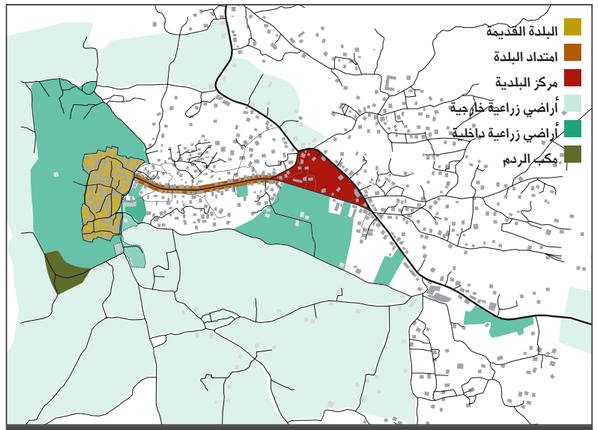

تحديد المناطق

باحات الخوف ؟

مجرد وجودك كان صعب. ما عدت أقدر الذهاب والمجيء في عيتا. يريدون تشفيلي. تصمت. ومن وقت لآخر لا تستطيع الصمت... مع الوقت، صار الخوف ينقلب على المسؤول اللحدي. في البداية، كان يتمكن من إثارة بعضنا على بعض. إستفاد من انحصار المقاومة بدايةً بجو عائلي عموماً، مع اختلاف حدّتها ضمن العائلات الأخرى، فاتّبع سياسة عائلية. الاسرائيليون كانوا يطلبون مجندين من كل عائلة. هكذا تعاملوا معنا. ثم صار جو المقاومة يمتد أكثر إلى العائلات المختلفة. هنا لم يعودوا يعرفون كيف يتصرفون. وصار المسؤول خائف، خائفاً من كثيرين. «وقتها انتهى كل شيء بالنسبة له، وأصبحت مسألة وقت. ولم يعد ممكناً تقليب العائلات على بعضها. صارت سياسة اسرائيلية مكشوفة.»

باحات الخوف

هي محاولة لرسم الخوف كتابة، أخشى أن يشوه ما لا يكتب نثراً أو يحكى لفظاً. ما طرزته عيون امهاتنا داخل جدران المنزل– من همس كان ولمايزل بمثابة أبجدية لا يفقه لغتها غيرنا.وان كنا عجز البيت فالفلسطيني صدره القافية.

كأي وحش يخشى الفرد منا اثارته بحركاته أو بخطواته الجد عادية، كان «العدو» يفرض نمطاً غريباً من العلاقات والتصرفات المستحدثة والمستهجنة على الناس وواقعهم آنذاك.

صيفاً، وهذا حالنا ومعظم الفلاحين، كان البيدر والحقل مكاناً للعمل في النهاروأحياناً كثيرة وشبه دائمة مكاناً للسهر والنوم قرب «الغلة». وعلى أسطح المنازل هناك أيضاً جلسات سمر وأحاديث للزوار أو لعاشقين.

موقد الداخون وكانون الحطب والفحم يجمعنا والجيران شتاءاً.

اغلاق باب الدار وخوخته مع حلول الظلام مفارقة جد خطيرة وشيء لم يألفه أهلنا كما نحن.

كنا صغاراً، نخاف النظر الى صحن الدار الخارجي من النافذة فكيف الخروج الى «البيت الخارجي» لقضاء الحاجة.

أصبح لدينا بيت داخلي يسمى «حمّام».

مع بدء العمل الفدائي المقاوم «للعدو» الإسرائيلي (كان أسمه العدو ثم صار محتلا) مطلع السبعينات وانطلاقاً من بعض القرى المتاخمة لفلسطين، أمعن العدو في تكريس حالة الذعر والهلع جراء بطشه وارهابه على الناس بهدف اثارتهم ضد الفدائيين.

الخوف شعور جميل أحياناً، لكن ثقافة الخوف هذه أوهمتنا بأمل «إنّو رَحْ نُزمط». كان أخي الأكبر يدفن الكتب والمجلات في التراب وكذلك فعل جارنا حسين أحمد. إقتناء الكتب غير المدرسية، وقراءة الجريدة اليومية يشكلان خطراً أقله نسف المنزل بعملية كوماندوس: «شفتو شو بدو بها الشغلة الاستاذ حسن منصور ما هني عم بيراقبوا».

الاستماع الى اذاعة صوت فلسطين يعني أصبحت هدفاً ليلياً للاسرائيلي وعملائه «حسن أبو نعمة، حمد طالب سرور، قاسم سرور وأبو رباح سرور»، «بدن يخربوا الضيعة بكرا بيهجرونا متل الفلسطينية ».

أصبحت الحواس الخمس عبئاً لا يطاق، وطأة العلاقة مع الرعب، ان رأيت وقرأت، ان سمعت شاهدت. حتى رائحة القهوة في الليل يجب أن تخبأ عن عيون الاسرائيلئ وعملاؤه.

بدأ الخوف يتعاظم أكثر مع اقدام العدو على قتل كل من «علي رحيل جواد» وزوجته في وضح النهار بقذيفة اثناء عملهم في حقلهم. وكأنه يحاول بذلك أن يحدد مكان وخط سير المزارعين للحقول المسموح العمل بزراعتها.

الشباب الوطني المقاوم في «عيتا الشعب» كان هدفاً دائماً للعدو وعملائه وكان الناس يخشون الحديث معهم.

صوت الكلاب كان اشارة الى ان قوات المشاة قريبة جداً.

بسهولة كان يقطع هذا الخوف حالة الوفاة لأحد ابناء البلدة فيخرج الأهالي ليلاً لمواساة اسرة المتوفي. أو عند اقامة مجالس عاشوراء ترى الناس يخرون حواجز الخوف. وفي شهر رمضان كان «الطيراوي» «المطبل» من نبرة صوته ووقع خطواته، نعرف أن الاسرائيلي موجود في زاقوق الحارة أو غير موجود.

أما في النهار وحال الناس في الحقول فكانت العلاقة مختلفة الأساليب عمل يحصل في الليل.

«هنا لندن، هيئة الإذاعة البريطانية» عبارة اعتدت سماعها من راديو في دكانة «الطنطورة». لم يفاجأ الطنطورة في صيف ١٩٧٦ عندما أقدمت العصابات اللبنانية الموالية لإسرائيل على قتل أكثر من عشرين مواطناً لبنانياً جلهم من النساء والعجزة في بلدة حانين قضاء بنت جبيل. ولم يفاجأ الطنطورة في اجتماع أهالي بلدة عيتا الشعب في منزل الشيخ حسين سرور وكان مطلبهم خروج أبناء البلدة الموالين للحركة الوطنية اللبنانية وتركهم القرية حتى تسلم من مجزرة مماثلة. الطنطورة لقب لأحد الناجين من مجزرة ارتكبها الصهيانة في قرية الطنطورة الفلسطينية، وهو بمثابة شاهد عيان وربما الوحيد. كان صامتاً لأكثر من خمسين عاماً، تزوج امرأة من عيتا الشعب.

تقع مقبرة عيتا الشعب على هضبة مطلة ومتاخمة لفلسطين حيث دفن الطنطورة.

قبل إعادة البناء والتخطيط، وبعدهما

بُرهةٌ، نَفَسٌ متقطع، مع الفراغ المفاجئ

بين عيتا الشعب حيث الحرب والمقاومة، وبين لجوء المدنيين في الأسبوع الأول والثاني والثالث إلى قرية رميش المجاورة، بعدما أعلن الإسرائيليون عبر مكبرات الصوت يوم الجمعة بأن على الجميع الرحيل، ولمن لم يفهم معنى إرحلوا، فقد أعلنها الإسرائيليون قذائف من كل نوع:

الشهيد فقده والده في عيتا الشعب ببرهة عنه.
فحمل السلاح عنه، وتأمل إلى الخلف..

أَلشهيدُ يُحذّرني: لا تُصَدِّقْ زغاريدهُنَّ
وصدِّقْ أبي حين ينظر في صورتي باكياً:
كيف بَدَّلْتَ أدوارنَا، يا بُنَيَّ،
وسِرْتَ أمامي؟
أنا أوّلاً
وأنا أوّلاً!

«حالة حصار»، محمود درويش

شاشة الصواريخ من الطائرة. البيت A ٥٦.
البيت تماما على الإحداثيات. كبسة زر. صاروخ.
صوت مدوّي. فراغ مفاجئ. صاروخ أخر. فراغ.
في الدقيقة الواحدة فراغان. في الساعة، ١٢٠ فراغا.
في اليوم، ... ولكن هل نعلم ما هو الفراغ الواحد؟

المرأة الثمانينية، والحارة بإسمها بلا صكوك عقارية، والتاريخ تاريخها بأولادها المنفيين والمسجونين، تلمح مقاوما، تلمحه تحت الشجرة: «يعد واحد من شاني يا ابني». المقاوم ينهرها بمحبة وخوفا عليها، لكنه بعمقه يريدها: «روحي يا حجّة». لا تريد الذهاب. إنها حضن للمقاومة. لقد كانت دوما حضنا، والآن برغم مرضها لا تشعر بأنها عاجزة. إنها تحتضن، لا أكثر. والمقاوم بلا حضن يتيم.

في الحصار، تكون الحياةُ هي الوقتُ
بين تذكُّر أوّلها
ونسيان آخرها...
...
سيمتدُّ هذا الحصار إلى أن نُعلّم أعداءنا
نماذجَ من شعرنا الجاهليّ
...
الحصارُ هو الانتظار
هو الانتظارُ على سُلَّم مائلٍ وَسَطَ العاصِفَةْ

م. د.

الشعر ملجأه. والشعر القديم تحديدا، سواء في الحصار وقَت رميش أو بعده. وكلامه مستمد من الأرض. إذا قال أنه طلب من الآخرين أن يهدؤوها وألّا يأذوه ويتعدّوا على أرضه: قال: نعّمت كلامي مثل التراب الأحمر.
مقاوم مرح في الماضي. والآن محاصر مضجي بكل إيثار. وغدا يريد الإبتعاد عن عيتا الشعب، أو أن يعمّر بيته وسط أخصب أرض زراعية له على التراب الأحمر. «لا بأس». الآن مستعد للتضحية بالتراب الأحمر: «لا بأس. سينهي أولادي المدرسة وسأغادر عيتا الشعب.»

في الحصار وقت رميش، كنت أصعد إلى سطح المدرسة حيث ننام، لا أعرف كم مرّة في اليوم. أتفحص أين سيسقط الصاروخ. إذا سقط هنا، فينزل هكذا. هذه حالنا وقت الحصار. لا نعرف ماذا نفعل. مرّت علينا أيام لا يمكنك أن تقدّر صعوبتها. مهما حاولت لا يمكنك. إستلقيت ثلاثة ايام على لوح خشب مثل هذا أمامك. لم أغسل وجهي مرّة واحدة في الأيام الثلاثة. لا ماء. بركة رميش صارت ملوثة، ولا تعرف ما هي الماء وأنواع البلاعيط فيها. ذهبت إلى من يعبئ المياه. قلت له: أنا والله خجلان منك، بس قاصدك بطلب، ولولا إني مضطر عليه... قال لي: والله إذا قادر عليه، ما رح قصّر، ومعزتك عندي كبيرة، بس إنت عارف الظروف هالأيام. قلت له: بدّي شوية ميّة غسل وجهي...

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ،
بيضاءَ، بيضاءَ. تغسلُ خدَّ السماء
بأجنحة حُرّة، تستعيدُ البهاءَ وملكيّة
الجوّ واللّهْو. أعلى وأعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. لَيْتَ السماءَ
حقيقيّةٌ (قال لي رجلٌ عابرٌ بين قنبلتيْنْ)

م. د.

وقت الحصار، كنت روح بسيارتي مرّات على عيتا الشعب. في جرحى وأشلاء، أو تبغ ومونة أو ما أجده. فضلتهن على عيلتنا. ما كان هناك عيلتنا وعيلتهم.

قال لي واحد من المقاومين. لما شفتك جايية على عيتا الشعب، ومعك ربطات الخبز، إطمأنيت. لسنا وحدنا.

نُخَزِّنُ أحزاننا في الجرار، لئلاَّ
يراها الجنودُ فيحتفلوا بالحصار...
نُخَزِّنُها لمواسمَ أخرى،
لذكرى،
لشيء يفاجئنا في الطريق،
فحين تصيرُ الحياةُ طبيعيَّةً
سوف نَحزن كالآخرين لأشياءَ شخصيَّة
خَبَّأْتُها عَنَاوينُ كبرى،
فلم نَكْتَبِهْ لنزيف الجُروح الصغيرة فينا.
غداً حين يَشْفَى المكانُ
نُحِسُّ بأعراضِه الجانبيَّةْ
...
سيمتدُّ هذا الحصار إلى أن
يُحِسَّ المُحَاصَرُ مثل المُحَاصِر،
أنّ الضَجَرْ
صِفةٌ من صِفات البَشَرْ

م. د.

قرابة ٤٠ جندي إسرائيلي قتيل،
وعشرات الجرحى في عيتا الشعب.

ورجعنا. قعدت بهذا الكاراج قبالك. من اكثر الأشياء التي حزنت عليها كتب ذهبت مع غرفة النوم. كتاب أغاني الأغاني. لا بأس. وإشتغلت بالمساعدات بعد الحرب. ما طلبت شي. بعدين لما شفت كيف ماشية المساعدات، هذه حالة ثانية.

مساعدات مالية من كل صوب وطرف. إتحاد أوروبي، منظمات دولية غربية، وما هبّ ودبّ. والناس ينتظرون دورهم. مساعدات طارئة، وأصحابها عصبيو المزاج: لماذا لا تعلقون ملصق شعاراتنا على المساعدات؟ أعلام على حاويات النفاية. إنها مساعدات إنسانية بغض النظر عن نسبية الآراء في الحرب..

ألشهيدةُ بنتُ الشهيدة بنت الشهيد
وأختُ الشهيد وأختُ الشهيدة كنَّةُ
أمّ الشهيد حفيدةُ جدٍّ شهيد
وجارةُ عمِّ الشهيد (الخ... الخ...)
ولا شيء يحدثُ في العالم المتمدّن،
فالزمنَ البربريَّ إنتهى،
والضحيّةَ مجهولةُ الإسم، عاديّةٌ
والضحيّةُ.. مثل الحقيقة.. نسبيّةٌ
(الخ... الخ...)

م. د.

هل يمكن أن يكون الحبُ زيفاً؟ هل يمكن أن يكون التضامن وهماً؟ ما بعد الحرب يمتلك إجابات قاسية، لا تقلّ عن قسوة الصاروخ المفاجئ الذي يخلّف فراغا مفاجئا في الذكريات.

هناك من يرجع إلى بيته المهدّم. لا يؤمن له خيمة ينصبها إلى جانب بيته وما تبقى من رماناته ليتمكن من التأمل، من رثاء بيته: هنا بوصلتي، هنا جذوري. من دون هذا البيت وهذه الحارة أنا ضائع.
عشرون عاما.. كم كنت وحدك ..

المرأة الثمانينية ما زالت تنتظر تصنيف بيتها، وهي ترى البيوت تفرّخ وحدات من الدمار.

المرأة الحالمة ترى كابوسا لبيت والدها بعد الحرب.

قالت أم ي. بعد أشهر من الحرب: والله ما زعلت على بيتنا وقت الحرب قد ما زعلت هلق، لما جارنا عم يتعدّى علينا. وقت الحرب قلنا فدى المقاومة، هلق فدى مين؟

كان يود الختيار أن يستقبل أولاده وأحفاده في أول عيد في بيته الحجري الذي بناه بنفسه قبل خمسين عاما، وهو إحساس بعودة الحياة، وتلمسه لهذه العودة، وإستمراريتها. وإذا أعطينا لنفسنا الحق التحدث أكثر، فقد بكى أمام بيته المجروف، وإن بقوة ورغبة بالتحدي، مثلما بكى بعضنا. وقد كانت هذه الحادثة مؤثرة وجعلت الجرف في البلدة القديمة يتوقف لمدة طويلة.

الجار صار مش طايق جاره.
وأنا ما بدّي أسكن حد أهلي.
أول مرّة بشعر هيك.
التعويضات هلكتنا.

ليس هناك مسؤول واحد من بين كثرة المسائيل مهتم بعمق بموضوع إعادة تأهيل البلدة التاريخية. الموضوع هو قيمة التعويضات، ولمن، وتوسيع الشوارع للسيارات كفرصة.

نسوة يبقين في البلدة القديمة. الخبز مقاومتهن.
بعضهن بقين حتى الأيام الأخيرة، أو ما بدا أنه أياما أخيرة. والأحلام أيضا مقاومتهن: حلمت بأن الإمام علي كان فاتح إيديه، ومرّ ٢٠٠ رجل من تحتهم. إلا... قالوا لي اليوم الثاني لما خبرتهن الحلم بأنه رح يستشهد. إستشهد. كان يضحك كثير، كان مرح. هو من القلال إللي كانوا من برّا عيتا. وصار واحد منا.

كثيرون يتحدثون عن موت مسنّين بعد الحرب. هذا ما يمكن سماعه عبر مئذنة الجامع التي تعلن تكرارا عن موت مسنين كل أسبوع تقريبا.

عندما عرفت أن بيت «الختيار» جُرف بكيّت، لا على البيت وحجره ولا على محو التراث والهوية ولا على طمس التاريخ، ولا على تمزيق النسيج العمراني والاجتماعي. بكيّت لأني صدقت مشاعره وقصته مع بيته، وفهمت علاقته به؛ صدقت أنه يريد أن يعود إلى بيته، ليرتبط معه من جديد، ويحتمي به. هذا البيت الذي بناه الحاج قبل سبعين سنة بنفسه، عندما كان ما يزال يافعاً، دليل على وجوده اليوم، فأصبح هو البيت والبيت هو.
وفي وقت لم تكن فيه العلاقات بين أي من الأطراف واضحة أو شفافة: فلا الحوارات المقنعة مع القطريين مفهومة، ولا العلاقة مع المقاول صريحة، ولا الوعود الايجابية مع مجلس الجنوب ملموسة، ولا الحوارات مع الأهالي حول خيار الترميم لبيوتهم الحجرية كافية، يتمسّك الختيار بكل بساطة ببيته. لا يعنيه ما يتوصل اليه أصحاب قرار الهدم، أو الترميم، أو الهدم الجزئي، أو الحفاظ على النسيج، أو اجراء مسح جديد، أو التراجع ثلاثة أمتار عن الطريق، وما يحمله أي قرار من مصالح لهم أو لنفسه. كان صادقاً مع نفسه، اعتبر بيته جزءاً منه، فمرض عندما فكّر بهدمه وشُفي عندما قرر معالجة البيت وإبقاءه على قيد الحياة.
في اليوم الذي قررت فيه الجرافة القضاء على علاقة الحاج مع بيته، لم يترك «الختيار» ساحة الجريمة وظل يحوم حول الردم، يذكرنا بشاعرٍ وقِف على الأطلال يبكي حبيبه

الأطراف، والمخاطر على عيتا الشعب بعد الحرب

قراءة في الأسباب والضغوطات التي أكملت منطق التدمير

سنركز هنا حديثنا على مثال البلدة التاريخية التي تحكي الكثير عن مجمل عملية إعادة البناء في عيتا الشعب.

منذ البداية كانت هناك أفكار «سوليديرية» صغيرة في ما يخص البلدة التاريخية لعيتا الشعب. إن الذي شجع ذلك عوامل عامة معروفة بالإنبهار بالـ«حديث» والمتمركز في التجربة المدينية لبيروت تحديدا (تحويل وسطها من مكان إلتقاء إجتماعي متنوع إلى مكان للنافذين). وكانت آلية كشف الأضرار التي حددتها الدولة اللبنانية ممثلة بالهيئة العليا للإغاثة ومكتبها الإستشاري (أو مجلس الإنماء والإعمار) مشجعة على ذلك. فكل البلدات الجنوبية تحوي بلدات تاريخية لم تؤخذ في خانة خاصة بكشف الأضرار. وساوت آلية كشف الأضرار بين الفيلا الدوبلكس والبيت التاريخي الذي يعود عمره إلى أكثر من مئة عام. كما أن آلية التدقيق على الكشوف للدولة تثير علامات إستفهام حول دقتها. وعلى أي حال، فإنها لم تعلن.

كان هناك بداية كشفان لمسح الأضرار، واحد يخص «مجلس الجنوب» والآخر لـ«جهاد البناء»، وكلاهما لم يأخذا بعين الإعتبار حالة البلدة القديمة والبيوت الحجرية التاريخية. ويمكن القول بأن الكشفان شجعا على تسجيل البيوت في خانة الهدم للحصول على تعويض هدم، وإن كان هناك فارق في الدقة لصالح الأخير كما عبرّ كثير من الأهالي.

العامل الثالث تمثل بمصالح مالية تخص مقاولين مسؤولين عن إزالة الردميات، والتي شجعت بدورها، ومستخدمة شبكة علاقاتها، بهدم البيوت حيث تحصل على مبلغ مالي أكبر لكل بيت مهدوم وربما تحسب نفسها تفعل خيرا لأهل بلدها بحصولهم على تعويضات مالية أكبر.

وهناك عامل تمثل بعدم وعي، وخاصة من قبل الدولة المانحة، لقدرة عامل المال إن لم يصرف بطريقة ملائمة، واضحة وشفافة، الذي يؤدي إلى صرف النظر عن المواضيع الرئيسية ليصبح هو الموضوع. وربما هي آلية التعويض الفردية التي وضعت، بعد التهجير والاستهداف الجماعي الذي تعرض له أبناء عيتا فجابهوه وقاوموه بالالتحام والتعاون، ليعود منطق هذا التعويض في تفريقهم إلى مجموعة أشخاص مرقّمين. كما قد يسمح منطلق التعويض الفردي بأن يتخلله شوائب من تفعيل للسلطة وللنفوذ لتلبية مصالح شخصية، تجاهل الأضعف في المجتمع، لجوء الى الوساطة مع أصحاب المال، وتحجيم للأفراد عبر ارجاعهم إلى مكانتهم الأساسية في المجتمع ما قبل الحرب.

ويبقى أن الموضوع الأساسي لم يعد إعادة بناء البيت والحيّ والطرق، بل التعويض عن ذلك ماديا. وربما لأن الجهة المسؤولة عن كشف الأضرار على الأرض تمادت في تغيرّ الكشوف وإعلانها، وبالتالي شجعت عن قصد أو بلا قصد سيطرة موضوع المال، في ظل ضغط حثيث من السكان على تغيير تصنيف بيوتهم إلى خانة الهدم للحصول على حصة مالية أوفر. ومثل حالات قرى أخرى، ومع غياب تواصل وشفافية، فإن الإشاعات والوساطات والضغط بطرق غير مباشرة يصبح حيلة الناس المستضعفين والمغيبين، وبالتالي تنهار البيوت واحدا تلو الآخر في سبيل النقود اساسا.

ورغم أن الدولة المتبنية لإعادة الإعمار قد تجاوبت تدريجيا مع الحفاظ على البلدة التاريخية، إلاّ أن قولبة تجاوبها مع المصالح المحلية أودى بهدفهم، رغم أنه كان قريب المنال بعد ستة أشهر، وكان النسيج العمراني والإجتماعي والبيوت التاريخية سيحافظ على نسبة كبيرة منها. هذا رأينا الذي واكبناه عبر معرفة كل بيت ببيته في البلدة التراثية، وكيف كانت التحولات جارية.

أما نصيب المقاومة ودور البلدة التاريخية فيها فقد جرى تهميشه أيضا. وبرغم أن «حزب الله» تجاوب مع مساع متتالية وضغوط على أرض من قبل جهات مختلفة للحفاظ على الطابع العام للبلدات التاريخية، إلا أن ذلك الموضوع لم يكن في صلب الإهتمامات إلا متأخرا، ومحليا لم يكن هناك تجاوب معه من قبل أطراف نافذة ومسؤولة وبرغم أنه أتخذت قرارات صريحة من قبل الحزب ذاته في نهاية السنة الماضية.

وثمة اسباب صغيرة أخرى، مثل عدم التشبث من قبل السكان ببيوتهم، في ظل الضغوطات التي تنشأ بعد حرب مدمرة كهذه، رغم وعيهم لكثير من أهميتها، وتدني الوضع الاقتصادي الذي سعوا إلى تخفيفه عبر التعويضات وبتشجيع من كل ما سبق ذكره. كذلك عدم وجود إهتمام إعلامي فعلي بمثل هذه المواضيع، ودون ملاحقة إعلامية فعلية لها، والتأخر من قبل معلمين عمار خاصين في ترميم بعض البيوت لتكون مثالا على ما يمكن أن تصبح فيه، وعدم وجود مشروع فعلي للوعي بمثل هذه المواضيع، وإنما مبادرات متفرقة هنا وهناك ثقل سلطة الإحتلال على مدى ٢٢ عاما في كسرها لحدّة الديناميكية العلنية في المجتمع، وغيرها من الأسباب.

هنا تذكر الأسباب ملخصة، نظيفة، ومرتبة. لكن الواقع كان شديد الألم لفترة طويلة، ومليئا بحلم أن تكون البلدة التاريخية عنوانا للمقاومة وقت الحرب وما بعدها. النتيجة النظيفة هي أن غالبية البيوت الحجرية قد جرفت، وبعض جارفيها شعروا فعليا بالحسرة عليها وعلى الذاكرات الفردية والجماعية المتعلقة بها، وعلى أهمية خصائص عمرانية لها.

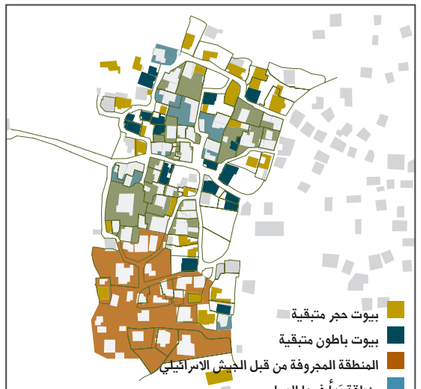

الوضع الحالي للنسيج العمراني (آذار)

عيتا.. وسر الأمان

سألتني أختي بكل براءة عن سبب تهجيرنا من بيتنا وبلدتنا، عن سبب تركها لعبها وأغراضها وصندوقها الأحمر الذي أحتوى كل أمتعة لعبتها «سوسو»، والتي لملمنا بقاياها عند عودتنا حين لملمنا أشلاء ذكريات تمزقت بتدمير بيت حضن أيامها بكل ما فيها... فهذا الدار الخالي الا من اثار الوحشة والركام شهد مسارح ألعابي مع رفاقي، شجرة اللوز المبتورة التي كبرت بنور استمدته من دفء حناني حفظت أسراري، وجدران هذا البيت المهدمة المفتصبة أسكنت آنيّة الحاجة الى السكينة والأمان.

ولم أعرف ماذا أجيب أختي ابنة الرابعة عن سر خروجنا، صحيح أننا هجرنا وجلنا في قرى غير قريتنا، الى أماكن قد بدت لنا آمنة بعض الشيء لأنها لم توضع على خارطة الأماكن «الارهابية» ولم تتهم بتهم «احتضان المقاومة».. لكن مقدار الأمان لم أجده ولم أعرف له طعماً

منذ خروجي من عيتا بعد أول عثرة أيام من بدء الحرب.
خرجت من بيتي لبيت جدي الذي كان يبدو أكثر اماناً وقبل أن أخرج سقيت أزهاراً.. زرعناها بطلب من أمي لكني كنت أشعر أن هذه الأزهار سوف تصبح خواطراً مبعثرة تحكي عن واقع أعيشه الآن..
كنت أشعر أن بيتي وضيعتي قد آن اوانهما ليواجها حرباً لم تكن على البال والوجدان... حرباً ما كنت أعلم أن عرسان عيتا سيحولونها الى مهرجان عرس زفوا فيه عيتا الى المجد ...
وبالفعل حيث كانت المواجهات طاحنة في خلة وردة وأبو طويل، كنا لا نزال في بيت جدي مع خمسين فرداً من عائلتي غالبيتهم من الأطفال والأمهات . عشنا عثرة أيام تحت ضرب المدافع والطائرات وكنا رغم هذا نتقاسم الخبزة والضحكات، نتساوى بالدمعة والابتسامة والفكاهة.. كنا عائلة واحدة دفأها في انعدام حدود الهوية فكنا لا نميز بين أخ وابن عم، بيت أم، اخته وخالة...
وكانت أصوات الرصاص سلوانا حيث خلت الشوارع من الكزدرة وتمختر الشباب... كانت أملنا حيث فقدنا الآمال بكل الأمم التي تحكي عن حقوق الانسان. كانت صورة الشباب القابضة على زناد حلمنا بمستقبل يعيد الماضي الخيّر. وحلمنا باتمام الزفاف، لتخلد ابداً في ذاكرة الزمان... فكانت هذه الأصوات مصدر أماني وسكينتي. حين تسكت أخاف وحين أسمعها أنام..
أزهو بأحلامي لأني أملك من يدافع عني.. أفتخر بيني وبين نفسي بأسام شعوب عربية وغير عربية ماتت على أعتاب الشفقة من رؤساء العالم، ولم تجد من يتكلم باسمها، أو يحكي حكاياها، بل نسيتها عن رزنامة الأيام.
بينما أنا لا أزال حية، ابنة الحرية.. ابنة جنوبية عاملية مقاومة لبنانية...
لكن حين قوي ضرب المدافع ولم يغب هدير الطائرات عن السماء الزرقاء حيث لم نعد نسمع الا أصواتاً منذرة بالموت والدمار والمجازر وفقد المجازر... حين ضج الأطفال بالبكاء فلم نعد نميز بين أصواتهم وأصوات الانفجارات، وحين فقدنا الأمل بحياة بعد هذه الأيام، وحين احتضنت الأمهات أطفالهن عساهن يحميهن من غدر أحلام الطفولة، وحين شطبت طموحي لأجده، باتت مشاهد لا تحوي الا الدماء.. حين أسدلت أمي ستائر دموعها واوصتني بحفظ أمانة هي أخوتي وأطفالاً قد يكونوا أيتاماً.. وحين سمعنا عن استشهاد أحبة...
قررنا الخروج من عيتا الشعب الى رميش تحت الضرب والنيران، تاركين فوهات البنادق سلطة على رقاب الأعداء.. هناك لم أعد في مكان تربطني به صلة أو خاطرة ولم أعد أشعر بسر الأمان الذي صرت أبحث عنه ولم أعد أجده. عشنا سبعة أيام في رميش وتركناها لصعوبة الحياة..
ذهبنا الى أماكن عدة أكثر أماناً لكن الأمان لم يعرف الى قلوبنا مكان.
صار اسم عيتا يوميا على شاشات الأخبار وكنا نعرف كلفة هذه الشهرة وكلفة هذا الاهتمام بقريتنا وقضيتنا...
كانت مناظر الجبال أمامنا مكسوة بالأدراج الخضراء اليافعة... لكن جمعيها لم تملأ مكان شجرة يابسة من أشجار بيتي.. كانت بيوت اللبنانيين مفتوحة لاستقبالنا لكنهما لم تكن تساوي حبة تراب من أرضنا.. كانت الشوارع الفسيحة تحت امرة سياراتنا لكنها لم تكن مثل أي زاروبة من زواريب الضيعة.. وعندما انتهت الحرب.. وعدنا..
عرفت أن عيتا ليست باسمها الجغرافي أو مساحتها أو كبرها أو موقعها.. بل عيتا مكان احتل مكانته في قلوبنا قبل أن يحتل اسمه على خريطة العالم. عيتا عروس سرها في سر شموعها، الشهداء الذين قدموا دماءهم لمشعل العرس ولتكون سر الأمان.

زينب صالح

منشور وزع في عيتا في تشرين الثاني ٢٠٠٦ من قبل أحد الأهالي

أخي في عيتا الشعب
هل تذكر ... ؟
أن لشهدائنا الأبرار والمقاومين الأخيار وصمود الأهل، ولبيوتنا والتلال وصخورنا والأرض، وأشجارنا والأحجار، أن لهم في ذمتنا والوجدان.
وقفة عز واباء دفاعا عن الأرض والعرض والبيت والدار.
هل تذكر ... ؟
وهل نسيت ...؟ أن عيتا الشعب لم تسقط بل أسقطت أسطورة الجيش الذي لا يقهر ولا يهزم .. واشتهرت وذاع سيطها وعلا اسمها يرفع الرأس شامخا عال الجبين ..
أخي وابن بلدي ..
لنكمل الصورة والمشهد شموخا ونتذكر أن واجبنا حفظ جميل الشهداء ومقاومينا الأوفياء وتكريس الصمود في مواجهة العدوان وأهدافه. لنبني بيوتنا والدار ومنازلنا ..
حيث كانت وسال الدم الطاهر وودعنا الشهداء .
حيث أراد العدو اقتلاعنا والقضاء على تاريخنا وقيمنا والتراث.
حيث البيت والجدران والتلال والأشجار احتضنت وحمت أبطالنا المقاومين وكانت بفضلهم عصية على الإحتلال .
حيث ولدنا فيها أبا عن جد. وتوارثنا أخا وأخت.
حيث ترعرنا وكبرنا والذكريات ، هنا وتحت سقفها وبجوارها ولدنا وهنا عشقنا وهنا تخاصمنا ، وهنا عطف أب ولمسة أم وابتسامة جار والطفولة .
والأعياد والأعراس ، وخبز الصاج ولعبة الحرب والحاكوره ، وكوفية والعقال والمحراث والفدان فيما تقاسمنا الأفراح والأطراح .
حيث سال العرق وامتزج بالدم واستمرت الحياة.
في بيوتنا التي نرث تجسد التاريخ فيها عرقا ودما وجهدا وذكريات ...
كيف لا نعيد بناءها حيث كانت حيث كنا وكانوا هل من وفاء ...؟؟؟
ونرد الصاع صاعين كما رد الشهداء على الأعداء الذين استهدفوا مسح تراثنا وماضينا الجميل وحريتنا وسيادتنا وحقنا في الحياة أعزاء كرام .
ونبني بيوتنا على أجمل وأبهى مما كانت ونرد الجميل الى شهدائنا وأجدادنا وأبائنا .
دعوه الى من تهدم بيته بفعل العدوان الى بناءه من جديد حيث كان، مع مراعاة الحق العام والخاص.
دعوه في الأصل.

حركة مجموعة متطوعين

هوية المجموعة وتفاعلها مع المكان

منذ البداية، توجهت مجموعة من المتطوعين[1] إلى عيتا الشعب بعيد الحرب مباشرة. وعملت ضمن بلدية عيتا الشعب في قسم التخطيط والهندسة المستحدث.

لم تكن هناك خطة واضحة في البداية، وهو ما نعتبره بأمر فيه إيجابياته. فالتعرف على ما هناك وواقع الأضرار والقرية، وناسها، تضامنا وتواصلا، هو جزء من التفاعل مع المكان. وفيها من العقل والإحساس والقلب (وخصوصا في عصر البلدوزر..)، وهي بذلك متقلبة وليست ثابتة، وهو ما يضيء إلى دورها في عملية التخطيط، وفي حوار مستمر وجدّي مع التخطيط كعملية موضوعية عقلية مهنية فقط كما يشاع ويراد أن يشاع. ربما كان يراودنا البحث عن دور. وربما كمية التدمير الكبيرة في عيتا الشعب، وكون عيتا الشعب مركزا لعدّة قرى، وربما قربها من الحدود وقربها من فلسطين، وربما عوامل أخرى لا نعيها، قادتنا إلى عيتا الشعب دون غيرها. ومنذ البداية كنا نفكر في عدّة قرى، ورأينا أن بعض المجموعات إتجهت إلى بعض القرى. وفي النهاية أهملت غالبيتها، بينما كان المخططون، والإعلام، والكوادر الحزبية، والناشطين في المنظمات غير الحكومية، وحتى أعضاء مجالس بلدية، وإلى ما هنالك من فاعلين تتمركز غالبيتهم الساحقة في بيروت أو في المدن الرئيسية.

الوعي للمخاطر وترتيب الأولويات

أول المواضيع الهامة كان موضوع البلدة التاريخية لعيتا الشعب التي جرفت حارة منها من قبل الإسرائيليين وأصيبت بيوت كثيرة أخرى فيها، وكانت مهددة بأكملها بالجرف بعد الحرب. الموضوع الآخر الملح كان موضوع التعويضات المالية مع تبني سلطة عربية (قطر) لعملية إعادة الإعمار هناك. ركزنا على الأول وأهملنا الثاني، وفي النهاية إرتد الثاني على الأول بلا هوادة.

قد تكون هذه النقطة أول نقد ذاتي، وهو تجزأة عملية إعادة الإعمار وفصل عملية إعادة الإعمار بشكلها الواسع وآليتها عن الموضوع. وقد تكون لذلك عوامل خارج قدرتنا، حيث حاولنا منذ بداية عملية إعادة الإعمار دفع الجهات المختلفة للتنسيق مع بعضها، وذلك عبر البلدية. لكن تنسيق الجهات المختلفة لم يكن واردا، وقد يعود ذلك، بجانب أساسي منه، إلى إنعكاس لعقلية التفرد عند جهات عدّة وخشيتها من ما تراه مختلف. وبسبب عدم رغبة منا في الدخول في تفاصيل عملية التعويضات المالية، أي عدم لعب دور المراقب على عملية التصنيف أو التسبب في تقلص الحصة المالية الموعود بها أي فرد (إما مباشرة من التصنيف أو غير مباشرة من الجو العام الذي خلقه تكرار الكشف وإمكانية تسجيل وحدات أكثر)، ادراكا منا لسلطة المال وما توفره من رفاهية، وبعد فشل التنسيق الذي إقترحناه بداية، إبتعدنا عن موضوع التعويضات المالية بشكل عام. وبما أننا كنا نرى أثرها المباشر على موضوع البلدة التاريخية، وبسبب محدودية قدرتنا، وعددنا، إرتأينا التركيز على ما إعتبرناه أولوية في اقتراح تعديل منطق التعويض للبيوت التي تحتوي على أقسام حجرية لا يتعارض مع الوعود المالية الذي تلقاها الأهالي بل يعززها لتتمكن هذه البيوت أن تعالج المشاكل التي كانت ترادها قبل استهدافها من الجيش الاسرائيلي ويعاد تأهيلها لتصبح أصلب وأمتن مما كانت عليه.

فحاولنا إحتواء تأثير موضوع التعويضات المالية على البلدة التاريخية لعيتا الشعب بشكل أساسي. فكان اقتراحنا الأخير، أثناء الكشف الثالث للمثل القطري (وبالتعاون المفترض معه) أن يعلن مشروع لترميم وإعادة تأهيل البيوت الحجرية وأن يكون من مهام الكشف الجديد تحديد هذه البيوت والتعامل معها كملف منفصل لا يخضع لمنطق «خانات الهدم والترميم»، بل أن تعوض جميع هذه البيوت، مهما كان تصنيفها سابقا، ما يعادل تعويض الهدم. وكان هذا الاقتراح، بالتوازي مع تحديد كلفة الترميم وإعادة التأهيل للبيوت (الذي كان يكلف في معظم الأحيان أقل من إعادة البناء من الصفر) والتواصل مع أصحابها، يهدف إلى تشجيع سكانها إلى المحافظة عليها وعدم جرفها في ظل الضغوطات. ولكن عادت هذه الكشوف وصنفت البيوت ضمن خانتي الهدم والترميم، مع وعود غير رسمية في تبني الاقتراح وتفعيله في مرحلة لاحقة. وكانت للتعويضات المالية، بالشكل الذي دفعت فيه، إنعكاسها على مجمل عملية إعادة الإعمار بما يرافقها من علاقات إجتماعية ونفسية، ومن هذه الآثار هدم الجزء الأكبر من البلدة التاريخية. لقد تمكنا من وقف الجرف في البلدة التاريخية لستة أشهر تقريبا، وفي صراع مرير، لكن موضوع التعويضات المالية أطاح بكل هذا الجهد، والأهم بأنه أطاح بعشرات ومئات السنين من تراكم في البناء والمعرفة والذاكرة في البلدة القديمة.

ولكن هناك وجهة نظر تقول بأن التعويضات مهما كانت طريقتها خففت من حدة الأزمة. صار للناس إمكانية تعمير بيوت. بالسابق، بيت أبو سميح مثلا لم تدمّر بالسبعينيات، ظل ثلاث سنوات بلا تعويض. وسكنوا في غرفة. اليوم هناك تعويضات لكل بيت. وصار كثرة حتى ممن لم يملكوا عناوين سابقة يملكون بيوتا.

[1] في الأشهر الأولى، إعتمدت مجموعة البناء، على مصاريف شخصية، ثم جاءت تبرعات من جمعية «مدى» اللبنانية، لبنانيون نشطوا خلال الحرب في فرنسا، تجمع «صامدون» اللبناني خلال الحرب جمعية «تضامن» اللبنانية الكندية، مجموعة فنانين ناشطين خلال الحرب من ألمانيا. وحاليا فإنه لا وجود لسيولة مادية. والمجموعة تحفظت على مصادر تمويل لأطراف كانت داعمة للحرب الإسرائيلية. عملت المجموعة تحت إسم «صامدون عيتا الشعب»، وكانت على تنسيق مع جهات مختلفة من بينها تجمع «صامدون» ومجموعة إعادة الإعمار في الجامعة الأميركية في بيروت، و«سينمايات» لتوثيق الحرب وما بعدها، التي كنا من ضمنهما، ومكتبا العمارة نصر شرف الدين وياسمين معكرون، وجمعية «أرض وناس»، وصحافيون من جريدة السفير، الأخبار، والتلفزيون الجديد وغيرهم. وكان الفريق المتطوع يعمل ضمن مجموعة واسعة عملت في الإغاثة الغذائية والطبية أيضا بعد الحرب. ونشاطات تضامن مع عوائل الشهداء والأطفال وغيرها، حي أقاموا في عيتا الشعب بعد الحرب مباشرة. والمجموعة التي عملت في موضوع البناء، هي من خلفيات شبابية متنوعة: مخططون ومعماريون وناشطون وعمال وموظفون سابقون وطلاب. وهي بمجملها لبنانية وعربية وبعض الغربيين، قلة من عيتا الشعب والمعظم من خارجها. وظل هناك فريق قليل مقيم في عيتا الشعب، بينما كان يأتي أفراد متطوعون على فترات مختلفة. وإعتمدت مواردها المالي في التكاليف الأساسية أو في أنشطة متعلقة بالبناء، في عيتا الشعب على موارد مالية تضامنية قليلة وعبر معارف.

رثاء الشهداء

كما ان المقاومة في عيتا الشعب هي متقاطعة الاجيال، فالحزن كذلك، والفقدان، والوحدة.

ان عائلات الـ ١٨ رجلا، إمرأة وطفلا ممن استشهدوا خلال الحرب ليسوا غرباء عن الحالة المتنافضة لرثائهم– من الفخر وكبت الحزن– بملامسة فقدان أب، زوج، أخ أو طفل.

يقع ركام بيت فاطمة على حافة البلدة القديمة، حيث تظهر الحدود مع فلسطين، يفصلها أحراش خضراء. أستشهد أخ فاطمة، محمد، خلال مقاومته الاجتياح. ومع وفاة أمهما في طفولتهما، فقد كبرا، فاطمة ومحمد، مع بعضهما، وربّى أحدهما الآخر. في الأسابيع الأولى من أنتهاء الحرب، استولى الحزن، ولم يكن ممكنا لها الحديث عن محمد من دون أن نهز جسدها النحيل الى الامام والخلف لدى استذكار طفولتهما. والدهما، ابو محمد، فاقد البصر، وإعتاد أن يقوده محمد حول القرية. لدى استشهاد محمد، يقول ابو محمد بأنه لم يفقد ابنه فقط، وانما فقدت «بصري ونوري».

زوج هدى، استاذ مدرسة ومدرّب كرة قدم، مات في الايام الأخيرة من الحرب. مع فقدانه، فان عليها ان تربي اولادها الخمسة لوحدها. عمل الأولاد مزارا لوالدهم في غرفة المعيشة. الى جانب صور والدهم، وضعوا بندقيته، عطره، أزهاره المنشّفة التي كان يعطيها لزوجته.

ابن الحاجة فاطمة، يوسف، كان طالبا عاد الى عيتا ليقاتل خلال الحرب. كل من الحاجة فاطمة وزوجها كان سجينا. كلاهما عذّب في الخيام خلال الاحتلال. قضى يوسف سنوات اعتقال والديه كأخ كبير يربي اخوه واخته الاصغرين. تقول الحاجة فاطمة، وهي تحمل صورة ابنها: «كانت قوة المقاومة في حرب تموز بأنها تدافع عن مجتمعنا، عن وجودنا. كان واجبنا أن نقاوم، لجيلنا ولاطفالنا، لئلا يذوقوا مرارة الاحتلال. لئلا يعيش معاناتنا جيل آخر». عندما استشهد يوسف، اخذ والده مكانه وحارب للثلاثين يوما اللاحقين.

كان شادي المقاتل الأصغر الذي استشهد في عيتا الشعب. طالب مجتهد في مدرسة الرهبان في قرية رميش المجاورة. أول المولودين من اخوته واخواته. . تتحدث امه عن كرمه ومرحه، وبأن منزلها كان دائما مليئا بأصدقائه. وبأن الصمت الآن، غياب الضجة والشباب، هو تذكير دائم لنهائية الفقد. تزور امه مكان موته يوميا تقريبا. ويعلو ملصق كبير بوجهه المتّسع، الداكن، واشعاع عينين ذكي من وجهه الرقيق.

يوميا، تجول زوجات، بنات، وأمهات هؤلاء الشهداء ذهابا وإيابا نحو المقبرة ومنها، حاملين الورود لتستلقي على قبور أولئك الذين بسبب تضحيتهم تأكد أن عيتا الشعب، رغم دمارها، يمكن أن يعاد بناؤها.

إن تقضية الوقت مع هذه المجموعة من الناس ممن اختاروا ان يبقوا، رافضين ان يكسروا، ومحتفظين ببريق من عواطفهم وقوتهم، لأمر يثير التواضع ويقلل من «أنا»ك. وهو هذا المستوى من التضحية ما يتطلب تضامننا. إذا كانت إحدى أهداف العدوان الاسرائيل هي ان تمزق هذه المجتمعات مثل عيتا الشعب، وتفرغ الجنوب من سكانه، فإن من يصممون على البقاء في وضع من عدم الراحة والأمان، أن يبقوا في أرضهم، أن يحاولوا المحافظة على نسيج مجتمعهم والعودة إلى نوع من الاعتيادية، هو بحد ذاته نوع من المقاومة اليومية والمدنية.

تعلّق إمراة تمسح دمار بيتها وحياتها بالقول: «يمكن لبيوتنا أن يعاد بناؤها، وقرانا أن تعود عامرة. فالإسرائيليون دمروا بيوتنا لا إرادتنا. ومع بدئنا بإعادة البناء، فكل حجر سيمثل فخرنا واصرارانا على البقاء في أرضنا وعلى اعادة بناء حياتنا».

عيتا جميلة ومدمّرة في وقت واحد.

الشرق يوميا هنا شاعري، وكلما غاب الضوء عن الأبنية الممزقة بالرصاص فإنها تبدو متكتلة مجددا. خلال المرور الى جانب النوافذ المضيئة ليلاً، يلمح الشخص ملامحا لحياة العائلات، من الألم، الفقد، الحب والصبر. سيعيد أهل عيتا الشعب البناء، في وجه الفقدان والقهر، بحجارة من تصميم وفخر، وهي بدورها رثاء

ماذا يعني التخطيط في إعادة الإعمار؟

في أجواء القهر وأجواء المقاومة

الحادثة التي جرت مع بيت «الختيار» المجروف تكررت مرّة أخرى في بيت ف. س. لقد جرى جرف بيت آخر دون علم ولا موافقة صاحبته.

مثل هذه الأعمال كانت قائمة سابقا، وفي أحد البيوت نفسه جرى العمل ذاته من قبل مسؤول جيش لحد في عيتا الشعب خلال الإحتلال الإسرائيلي. وكما تروي ويروي غيرها، فإنه من أجل توسيع شارع، جرف جزء من البيت، وقد أدخلت صاحبة البيت السجن لمدة يوم لأنها لم ترض أن تسقه فنجان قهوة! لقد كانت فترة الإحتلال فترة عنف وقهر ومنع الكلام والحوار. مثلما يقول ح. ع. الذي أجبر فترة على الدخول في جيش لحد، ثم إنتقل إلى المقاومة سرّا: «كنت أخاف من الحكي مع مرتي، ما كانت تعرف عني، كنت احكي بصوت واطي في البيت، وشوشة.» دخل سجن الخيام أكثر من مرّة، مع ما يعنيه مثل هذا الأمر.

لقد إستمر الإحتلال ٢٢ عاما، وكان سجن الخيام يمتلئ بالسجناء، وكان لعيتا الشعب النصيب الأوفر فيه، مع ما يعنيه ذلك من فخر من جهة وندوب من جهة أخرى إن لم يجر لثمها. وهي تترك أثارها على حركة المجتمع. لقد بدأت الأمور تتغير بعد التحرير، وصار هناك وجهات نظر مختلفة تتنافس وتتحاور، وإن ظلت آثار الفترة السابقة موجودة.

ما زال الحوار بمواضيع متعددة متشنجا، فليس الكل مسموع الصوت، لكنه يتحرك. وما زالت عيتا خارجة من إحتلال، وتحريرها ما زال طريّا. كان الإحتلال يحاول خلق مجتمع الخوف وفسد الناس على بعضهم، وغياب الثقة بين الناس. هذا هو الإحتلال بعمقه عبر إهانته للإنسانية والتواصل الإنساني، عدا عن القتل والتعذيب المباشر. ومقاومته هو بناء روابط جديدة وتضامنية. إن فترة مقاومة الإسرائيليين خلال الحرب كانت فترة حاسمة في عودة تضامن جماعي وتضحية لا مثيل لها، وهي مصحوبة بفخر التصدي لـ«الجار» الذي ينتهك عيتا الشعب ويستبيحها منذ أكثر من خمسين عاما. إنها فترة توقف كثيرون عندها من عيتا الشعب. تفاجأوا بأن التضامن الذي كادوا ينسوه عاد بقوة. كثيرون يشهدون لرئيس البلدية كيف كان يعمل خلال فترة الحرب، وكيف تعالى عن نفسه. كثيرون يذكرون كيف كان يُؤثر الإنسان غيره على نفسه، وليس على أولاده وعائلته فقط.

الديمقراطية والحوار في عملية البناء

الأسلوب التي تعاملت معه الجهات المتعددة والسلطات الرسمية وغير الرسمية في نقل المعلومات وتوضيح آليات الكشف، التعويض وإعادة الإعمار مناهض لمنطق المجتمع الديمقراطي الذي يسمح لجمهوره بمشاركة فعالة في تقرير وادارة شؤونه الخاصة وبحصوله على المعلومات بحرية واستقلالية.

مشاركة المجتمع المحلي بأخذ القرارات المتعلقة بمصيره كفرد ضمن جماعة، لا يكفي أن يكون عبر الانتخابات، خصوصاً إنه عندما انتخب هذا المجتمع بلديته، على سبيل المثال، لم يتضمن جدول أعمالها أسلوب التعاطي مع المساعدات والبناء بعد حرب مدمّرة.

تجاوز البلدية المنتخبة سواء بتنفيذ المشاريع أو تقديم المساعدات وغيرهما، يجاري منطق الخصخصة في العمل الأهلي الخيري أو التنموي.

ومن جهة ثانية، فإن البلدية، أي بلدية كانت، لا تمثل جميع الناس (كل الإنتخابات تمثل نسبة من الناس هي في لحظة معينة، أو في فترات طويلة، أكثر بقليل من غيرها)، ولكن ذلك لا يمكن أن يعني عدم مشاركة النسب الأخرى في الإنتخابات. إنه نقاش حول العدل، فالقرارات المتعددة المتعلقة بهدم البيوت أو الأحياء أو ترميمها أو توسيع الشوارع أو إبقائها على حالها، أو المشاريع المتعددة في القرية تتم من دون الإقرار بحق سكانها في المشاركة في إتخاذ هذه القرارات. وبذلك، فإن السكان يطورون أساليبهم الخاصة في مقاومة ذلك، مثل الشائعات أو خلق وقائع على الأرض دون علم السلطات المعنية وبمخالفة قراراتها. وفي هذه العملية تكون ردود الأفعال هي الغالبة، وتغيب عملية نقاش مستفيضة هادئة تقرّب كل صاحب بيت من معرفة ماذا يريد على مدى سنوات إلى الأمام، وليس على مدى ردّة فعل لحظية.

لذلك، فان جزءاً اساسيا من التخطيط في إعادة البناء هو فتح حوارات متعددة المستويات حول مواضيع إعادة الإعمار المطروحة، مثلما هو حال الحوار داخل العائلة حول إعادة بناء بيتها. والحوار ناقص بغياب إمكانية المشاركة. فالجزء الثاني هو إمكانية مشاركة الفئات المعنية في عملية التخطيط والبناء، وتحديدا عندما يتعلق ذلك ببيوتها وأحيائها وطرقاتها التي ستعيشها يوميا، فهم أول المعنيين بهذه العملية. فتاريخيا ثمة جدل حول كيفية البناء في البيت حيث يتم الوصول إلى صيغة معينة. مثلا في إحدى البيوت التي دمرت في العام ١٩٧٠ من قبل الكوماندوس الإسرائيلي، جرى حوار بين العائلة أثناء إعادة بناء البيت حول علو الأسقف ومساحة الغرف وغيرها، ووصلوا إلى صيغة وسط بينهم، وكان معلم العمار يلعب دور الوساطة عندما يحتاجونه. فهم لا يسكنون في بيوت معدّة سلفا من قبل غيرهم، وهو أمر أساسي في ديمقراطية عملية البناء للسكن الذي سيعيشونه. والحال يطال العلاقة بين البيوت في الحي والطريق، فثمة حوار مستمر حول علاقة البيوت بين بعضها البعض، وكشفها وسترها، والساحات والجنائن المتكونة فيما بينها، وطرق مرور بين بعضها البعض، إلخ. وتتكون من هذه العملية حقوق وأعراف ضمن النسيج الإجتماعي المتغير.

ترابط النسيجين الإجتماعي والعمراني

والأمر ذاته يطال النسيجين العمراني والإجتماعي. فإن العلاقات التاريخية والإجتماعية هي المحدّد لطبيعة هذا النسيج. فالنسيج العمراني للبلدات القديمة في المدن والقرى العربية الذي نعجب بجماليته، والذي يوفر الإستفادة القصوى من المساحات ويحدد علاقات مريحة إلى درجة كبيرة بين العام والخاص، هو ليس نتاج مهندسين أو مخططين بشكل أساسي، وإنما هو نتاج عملية تواصل، تحفظ الحقوق أيضا، بين أصحاب البيوت في الحي وحول الطريق.

فالنسيج العمراني هو إنعكاس للنسيج الإجتماعي. وجزء أساسي من النسيج الإجتماعي هو حورات مستفيضة، وتواصل بين سكان الأحياء والجيران وإن كان فيها أحيانا إنفعالات وردود أفعال ولكنها تأخذ وقتها وتتداخل فيها أطراف عديدة. فسيكون هناك كسر لهذه العملية إذا جرى عزل النسيج العمراني عن المكوّن له، أي النسيج الإجتماعي. فتفريغ هذه البلدات التاريخية من جزء كبير من سكانها مثلا سيغيّر بدوره من النسيج العمراني بشكل كبير. أو إن تغيّرا جذريا في تواصل الجيران بين بعضهم في الطريقة العرفية، المتغيرة، سيكون له انعكاسه على النسيج العمراني. ومن الضروري أيضا تعزيز طرق عمل وإقتصاد تشاركي وعلاقات إجتماعية في ساحات وغيرها كانت تحدد طبيعة هذا النسيج الإجتماعي المتصل بالنسيج العمراني. لذلك يجري العمل على تعزيز ساحات عامة كانت قائمة، أو طرق عمل جماعي كانت قائمة أيضا. فمشروع مثل تحضير صابون الغار في حارات البلدة القديمة، وخارجها، حيث كن يجتمعن النسوة للتحدث والعمل في غلي زيت الغار أو تحضير المونة وغيرها هي ما يمكن البناء عليه في تعزيز النسيج الإجتماعي التشاركي.

اقتراح لتعزيز الساحات

لعبت المشاريع المقترحة (المشار إليها في سياق هذا النص) دور في التواصل مع الأهالي، وفي فتح بعض النقاشات مع الأطراف المسؤولة بشكل أساس والأهالي بشكل محدود. عملية تصميمها وتنفيذها يحتاج إلى المزيد من تبادل الأفكار مع المعنيين بها، فتبقى قابلة للنقاش، التعديل أو الاستبدال.

نشرة مبنا الشعب 01
جول ٢٠١٥
خيار الترميم التراثي
نثرتان وزعتا للأهالي تنقل المعلومات والمراحل المتعلقة بالبيوت الحجرية
نشرة مبنا الشعب 02
جول ٢٠١٥
اعلان القرارات الرسمية لبيوت التراثية

المعرفة؟

ماذا تعرف وأعرف عن عيتا الشعب؟ ثمة فراغ كبير داخلي لم أنتبه له جيدا خلال الحرب وما بعدها. خلال الحرب، تكون مشغولا بألف أمر وأمر. تنتهي الحرب، والأن يمكن أن نفكرّ، ونحس بإيقاع آخر. لكن إعمار ما بعد الحرب يحمل نفس إيقاعها من ناحية سرعة الأحداث وكمية الدمار. أيضا لا تشعر بالفراغ المدوّي. لا تمتلك الوقت لتأمله، وأن تستفيق منه. هناك ما هو مستعجل بأرباح وغيرها. في أول البيوت الذي عشنا فيه، حيث نقضي كثيرا من وقتنا تحت فجوة خلفها صاروخ في السقف. كان يمكن أن أرى السماء، سماء عيتا قريبة النجوم في الليل، وألّا ترى الفراغ. فجأة، تستفيق عليه. تبدأ أذنك بتمييز الأصوات أكثر فأكثر. وتبدأ تعرف. بداية الطريق. قبل ذلك تحسب أنك كنت تعرف.

في مراحل معينة وكثيرة تؤخذ قرارات بحسم، بثقة، وبناء على إعتقاد بمعرفة، ثم يحلّ فراغ أخر. فراغ بيت أو ناس أو إحساس أو وطن. بحساب المعرفة التي تحسبها كذلك، يمكن أن تحصي عدد البيوت، عدد القتلى والجرحى، وأماكن التدير الكبيرة، وأكثر بكثير. مع مشاركتي بكتابة هذا النص، أشعر بأني جاهل عنه في تواخي كثيرة ومنه ما كتبته. في عدّة محاضرات عن اعادة البناء في بلدات جنوبية، منسقة، على power point، خرائط متعددة وملونة وصور، كنت اشعر بأني ازداد جهلا. ولكن صوت ذلك الفراغ المدوّي داخلك أمر مختلف. عندما تسمعه، تتساءل ما هي المعرفة أصلا؟ وما هي المعرفة من دون تواصل؟

القصة ليست سهلة ومليئة بالتناقض. حتى لو إزدادت معرفتك ورؤيتك، إزدادت كثيرا... ثمة قول صوفي «كلما إتسعت الرؤية ضاقت العبارة». المعرفة ليس مكانها هنا، ليست كلاما. قال حكيم صيني "قل كلمتك وإمش معها"، أي عشها وإلّا فانك لن تعرف. واذا عرفت، فليس يعني ذلك انك قادر بسهولة على نقل هذه المعرفة، من دون تواصل عميق.

كان الكل تقريبا يعرف كيف يبني البيوت الحجرية في عيتا الشعب قبل ٣٠، ٤٠، ٥٠ سنة. اليوم لا أحد يعرف، وتواصلنا مع خبراء في موضوع البيوت الحجرية. لكن لا أحد يعرف في عيتا الشعب بناءها الان. وكلما ازدادت «معرفة» المهندسين والمخططين، قلّت معرفة الناس. كلما اتسعت «معرفتهم» ازداد الجهل. انها أكثر من صدفة.

ربما بإستثناء حسين. حسين بنى بيته الحجري بنفسه. لم يكن ذلك أمرا غريبا في السابق. الجميع كان يفعل ذلك. الناس هم من شيّدوا بيوتهم مع معلمين عمار أو بأنفسهم. وشيّدوا أحياءهم. ثم فقدورا هذه المعرفة الى حد كبير. لكن حسين بقي محتفظا بها. تقول عنه أم موسى: حسين ما في أحرّ منه. إنه يشعرهم بالحرية.

أحضر مرّة صخرة كبيرة، صار البعض يسخر منه وهو ينحتها. عندما إنتهى من نحتها، صاروا يزورونه ليتأملوها. طلبها مسؤول لحدي سابق، فلم يقبل حسين. خرج حسين من سجن الخيام يوم التحرير. خرج بكل ندوب التعذيب والعنف الذي خلّفه.

جرف بيت حسين من قبل البلدوزرات الإسرائيلية في الحرب الأخيرة. ظلّ مرابطا كل يوم بحدود البيت يطلّ على بيته المجروف. وفي النهاية، تمكن من إستخراج الصخرة المنحوتة، مكرّة.

حدّد حدود أرضه بحجارة، كأنه يقول هنا حدودي. وبنوي معاودة بناء بيته بنفسه من جديد. لكنه ما زال مترددا. هل يبني في الحارة التي هي حدوده، أم أن أبنية المهندسين الجديدة ستجعله محدودا ويخرج من الحارة. حسين لا يعرف. وربما لو بنى بيته لم يعد يعرف. انها حالة، ليس بمعنى حالة دراسة، وإنما حالة، هالة، بين المعرفة واللامعرفة. فجأة بين سرعة البناء وضخامته، تشعر بفراغ كبير، فراغ داخلي.

مقاومة تغيّرات فوقية وجذرية

مثل مقاومة الصاروخ الذي يخلف فراغا مفاجئا.

والأمر الثاني المتصل بالسابق هو مقاومة تغيرات جذرية فوقية في عملية إعادة البناء بعد الحرب. إن موضعة المخطط لنفسه كمعني بصراع واسع، أوله الصراع ضد المخطط العسكري الإسرائيلي، هو في صلب عملية التخطيط. وبهذا التوجه، وبمنطق داخلي، فمحاولات جرف البلدة القديمة، ومكب الردميات على حافة تلة (نصف القرية!)، وتشتت مؤسسات مدنية تدمرت في الحرب، ومحاولات ردم بركة مياه التجميع العامة (حيث ندرة المياه في المنطقة)، والضغط على توسيع الشوارع كيفما أتفق، وإشتداد البعد الفردي في عملية البناء على حساب التواصل الجماعي، وتمزق النسيجين العمراني والإجتماعي وغيرها هي جميعها إنعكاسات لتغيرات جذرية متعلقة بالحرب وما بعدها، ولها علاقة بالموقف من مواضيع أوسع من المهنية الضيقة، من سياسية وإجتماعية وإقتصادية وبيئية وثقافية ورمزية، هي في أساس موضوع التخطيط والتصميم.

هنا يدخل جدل فعلي بين مدرستين عامتين للتخطيط التصميم. أولها تقول بأن التخطيط هو لوضع توجهات عامة للبناء أو لكيفية استخدام الأماكن، دون أن يعني ذلك الإلتفات إلى المواضيع الأخرى. والمدرسة الثانية تقول بأن التخطيط والتصميم هو تكريس للقائم بشكل عام إن لم يكن معنياً بالبنى الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والثقافية.

من الضروري مقاومة جذرية هذه التغيرات وإحتوائها قدر الإمكان، وخصوصا أن موضوع البلدة القديمة هو ليس نتاج نافذين وإنما نتيجة إيقاع سكان في جزء كبير منه. وبذلك فإن التجديد في عملية إعادة البناء هو ضمن ما كان قائما وبهدوء وبإيقاع ليس فجائيا، خصوصا عندما يكون المنطق السائد هو فرصة لنافذين. فعملية إعادة البناء بعد الحرب هي ليست فرصة إيجابية، بل انها مليئة بالفرص السلبية ولمصالح نافذين متعددي الأحجام. وبهدوء، يمكن فتح نوافذ تعزيز مشاريع تخطيطية وإقتصادية وإجتماعية في القرية، ولكن الأولوية هي إحتواء التغيرات الجذرية المتعلقة بالحرب، وربطها بما حاول الإسرائيليون فعله من تمزيق إجتماعي وعمراني، وتفريغ. التفريغ بمعانيه الواسعة من عمران وعلاقات إجتماعية وذاكرة وغيرها.

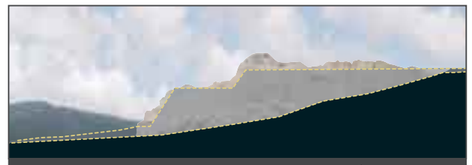

دبشة حمزة / مكّب الردم – قاطع يظهر الردم الزائد

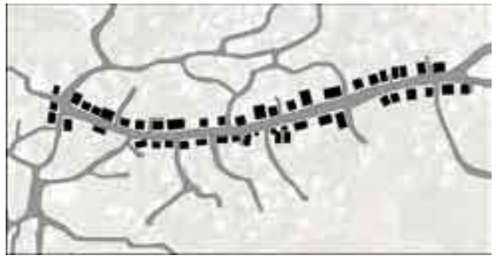

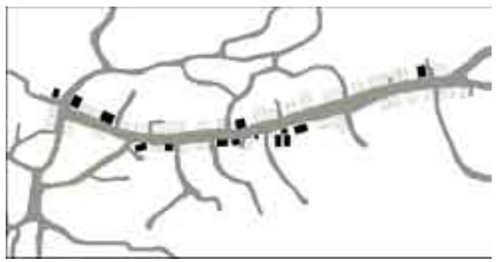

الطريق العام بين الجامع الوسطاني وساحة الكراج قبل الحرب والقتراح بعدها

حركة الناس

وأهم الأطراف في عملية إعادة البناء والتخطيط هم الناس المعنيون مباشرة بموضوع إعادة ترميم أو بناء بيوتهم. كثيرا ما يجري النظر إلى الناس بسلبية في الخطاب أو الممارسة، أو يجري نفيهم. لقد تعامل الخطاب الاستشراقي مثلا مع الناس بأنهم «شوارع» يحركها زعماء، بينما يفتقدون لمقدرتهم على الحركة والمبادرة مهما كانت درجتها. أو أنه إذا حسب حسابهم، فإنه ينظر إليهم بشكل سلبي. ينظر مثلا إلى غالبية أحياء القاهرة المبنية بشكل كبير من قبل الناس، وبالتالي معترف بمقدرتهم على التأثير بشكل كبير في تشكيل الأماكن للعاصمة، ينظر اليها في الخطاب المصري السائد بالـ «عشوائيات»، دون مقدرة هذا الخطاب على التواصل الداخلي مع منطق البناء هناك.

أظهرت تجارب كثيرة في المنطقة بأن الناس يتعاملون بشكل يومي مع السلطات محاولين فرض وجهة نظرهم بألف طريقة وطريقة. أحيانا تكون بشكل مباشر وبطرق علنية ومفتوحة، وكثيرا ما تكون بشكل غير مباشر. مثلا، في عيتا الشعب، كان الناس هناك يواجهون المعتدي الإسرائيلي بشكل مباشر في الحرب الأخيرة. بينما في ما بعد الحرب، ومع غياب التواصل والوضوح بشكل كبير، فكثيرا منهم كان يلجأ للطرق الإلتفافية للتعبير عن مواقفهم ورغباتهم.

وثمة إختلاف بالطبع بين الناس هناك وطرق تعبيرهم. فبينما كان الأشخاص الذين يتصلون بوضع عائلي أو مادي أو رسمي مرتاح نسبيا قادرين على التعبير عن رأيهم بشكل مباشر وصريح، عبر عرائض مثلا، فإن الأفقر منهم والأكثر إبتعادا عن مصدر القوة الإجتماعية كان يعبر بطرق غير مباشرة، ولكنها في كثير من الأحيان كانت تفرض على المعنيين أخذهم جديًا بعين الإعتبار.

من الفاعلين المستخدمين لطرق علنية، ظهرت أكثر من عريضة، بعضها يتعلق بالتعويضات أو بعدم ردم بركة المياه العامة في الساحة، أو التخلص من ردميات دبشة حمزة لأنها تشكل خطرا بيئيا على أراضيهم الزراعية. ومن بين هذه الجهات أيضا من كان يقوم بتدمير منزله بشكل علني كفرض أمر واقع على التعويضات عند غياب التواصل مع السلطة المعنية. ومن الجهة الثانية، هناك من كان يلجأ إلى طرق غير مباشرة مختلفة، كتدمير بعض أجزاء منزله بطرق مخفية وغيرها من الأساليب. وبالطبع، ثمة إختلاط بتفاوت عند كل جهة فاعلة. وفي كلتا الحالين، فإن غياب التواصل مع الناس يزيد من إستحضار دور الزعماء متعددي الأحجام للضغط على سلطة معنية، ونشر الشائعات وغيرها.

إذا كانت العملية فوقية، غير متصلة بما يريدة الناس المتنوعين، فإن قدرة الناس هائلة على فرض أمور على أرض، وهي تضطر السلطة في النهاية إلى تقديم تنازلات أساسية. ولذلك فإن الجهات التي كانت واثقة من نفسها، بإمتلاكها سلطات فوقية تريد اقرير ما تراه هي مناسب، كانت تضطر لتغيير وجهتها مع ضغوط الناس بأساليب مختلفة.

تتطور النظرة إلى مكان الإقامة في اللغة كإنعكاس لمفهومه.
فهناك الدار، بمفهومها الواسع كدار الدنيا ودار الآخرة
والسكن، ومنها السكون
والبيت، ومنها المبيت
والمنزل، ومنها نزل
وأخيراً... الوحدة.

موضوع التنمية

بما أن عملية التخطيط ترتبط بالدورة الاقتصادية ومصادر الرزق لدى أهالي القرية، فدعم وتعزيز هذه الدورة هو جزء من هذه العملية. فلا يمكن مثلاً ضبط البناء في الأراضي الزراعية من دون دعم الزراعة. ولكن المنهجية التي تتبعها الكثير من مشاريع «التنمية» قد لا تتناسب مع الواقع والعلاقات الاجتماعية التي تُبنى من خلال الممارسة الحياتية. كان هناك مبادرة من خلال مشروع الغار التنبه لمثل هذه المخاطر. ففي البداية طُرح موضوع «الزراعات البديلة» لتستبدل الدخان، بما أن زراعة الدخان عملية مرهقة ومحتكرة من قبل الدولة. ولكن من خلال الحوارات مع خبراء زراعيين، و مزارعيين محليين، ومعرفة للوضع الزراعة في لبنان، تطورت نظرة نقدية لأجندات التنمية السائدة التي تعمل على استبدال زراعات مدعومة من الدولة (وهي قليلة جدا) تحت عنوان «الزراعات البديلة»، من دون أن يكون لتلك الزراعات تصريف دائم.

مشروع الغار بدأ من خلال نقاش مع مزارعين وخبير زراعي، ويمكن وصف هذا المشروع كدعم لزراعات مكمّلة. فعيتا الشعب تشتهر بشجر الغار المثمر الذي قلما نجده في الأراضي اللبنانية، كما أن معظم نسائها يصنعن صابون الغار.

أوّل نقاش كان في كيفية دعم النساء في انتاجهم للصابون، فكانت هناك وجهة نظر انتقدت الشروط المسبقة التي تضعها بعض المؤسسات السائدة التي تعمل في مجال التنمية لتنفيذ مشاريعها، فتشترط، مثلاً العمل الجماعي دون الخوض في كيفياته وعلاقة الأفراد المجتمعيين ببعضهم. نقاش آخر حصل حول الأسواق الجديدة التي ستستقبل «صابون غار عيتا الشعب» والسعر الملائم لهذه الأسواق. فصناعة الصابون في صناعة محدودة وتلبي السوق المحلية أساساً، ولكنها قد خرجت سابقاً بكميات محدودة إلى أسواق أخرى من خلال تجّار صغار. فكان من أهداف هذا المشروع استبدال هؤلاء التجار بالمنتجين أنفسهم. ولكن هنالك بعض المخاوف الذي عبرّ عنها بعض أهالي عيتا من ناحية تصدير الصابون لأسواق ذات قدرة شرائية أعلى، فلا يجد أهالي عيتا الشعب أنفسهم الصابون في أسواقهم المحلية أو يجدونه بأسعار لا تلائم وضعهم الاقتصادي، أو بأن تصبح صناعة الصابون (من خلال طلب الأسواق الجديدة) عملية صناعية ميكانيكية مجردة من معانيها المرتبطة بالعلاقات والممارسات الاجتماعية التي تولدها.

ترابط المواضيع والأحياء

تجزأة المواضيع أو الأماكن عن بعضها البعض له إنعكاساته السلبية على كل موضوع من مواضيع التخطيط. ولذلك بُعدان، أولهما بين الأماكن المختلفة في عيتا الشعب، وثانيهما بين المواضيع المختلفة، وبالتالي بين المواضيع والأماكن. فتجزأة عيتا الشعب، وتباعدها عن بعضها البعض، أو عزل البلدة القديمة عن بقية المناطق وإعتبار أن هناك كسر حاد بين «القديم» و«الجديد»، أو العلاقة بين الأراضي الزراعية والعمران، هي مترابطة بطبيعتها. كما أن المواضيع مترابطة مع بعضها، موضوع الذاكرة، موضوع المقاومة، موضوع التجديد، موضوع التعويض الفردي والجماعي (المالي أو إعادة البناء)، التصميم، النسيجين الإجتماعي والعمراني، موضوع الحوار والتواصل والمشاركة، إلخ. وهو ما يفتح حوارا جديا مع مخططين ومعماريين ينظرون إلى عملية التخطيط والبناء كعملية تقنية ومهنية إحترافية أو عملية تصميمية فقط، وغير مرتبطة مباشرة وبشكل غير مباشر بالبنى الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والسياسية. فمجمل عملية إعادة البناء في عيتا الشعب أظهرت بوضوح شديد مدى ترابط هذه المواضيع مع بعضها البعض.

فمثلا، لم يجر حتى الآن التعويض على التلف الزراعي القائم، وعلى قرابة ١٥٠ رأس ماشية، وفي ذلك تأثيراته على تهديد الزراعة والمواشي أكثر مما هي مهددة، وعلاقتها بالعمران. فقبل عقد واحد فقط، كان الإعتماد على الحيوانات ظاهرة كبيرة في عيتا الشعب سواء باللحوم والألبان والأجبان والسمن والبيض إضافة إلى التموين الأساسي من الزراعة. فبحسب أبو قاسم دقدوق، رئيس الجمعة الخيرية لعيتا الشعب، هناك قرابة مليوني دولار ديون لأهل عيتا الشعب للدكاكين والبنوك بسبب تحوّل الناس، وعيتا الشعب، إلى مستهلكين بدلا من منتجين. فعدا عن جودتها التي لا يمكن أن تجدها كمستهلك، فهي توفر إقتصاديا على كل صاحب بيت وعلى القرية باكملها.

فمع دفع التعويضات المالية، وتوفر سيولة، صارت الأراضي الزراعية لعيتا الشعب مهددة بالعمران، وإزداد التهديد في أخصبها في منطقة المرج. وردة الفعل السريعة هذه يمكن لها أن يكون تأثيرها طويل المدى على الزراعة في عيتا الشعب وطرق الإقتصاد. في المقابل، تتعزز ظاهرة بناء المحال التجارية في الطرقات مع توفر السيولة، ويسود الطابع الخدماتي بتزاحم فظيع لن يؤمن مداخيلا كافية في هذا التزاحم وتركز الإقتصاد في جانب خدماتي واحد على حساب الجوانب الأخرى (مجاراة النموذج اللبناني الخدماتي العام). فعيتا الشعب تتحول من قرية منتجة إلى قرية مستهلكة. فالسؤال هو لماذا تركيز التعويضات على العمران وتجاهل الزراعة وإعطائها أولوية؟

كما أن الشهداء (والأحياء الذين يتواصلون معهم) من المفترض أن يكون لهم صوتهم في عملية التخطيط سواء بإرتباط مفهوم المقاومة بالمكان وإعادة بنائه أو بذكراهم كما كان مقترحا في تصميم أحد البيوت التي إستشهدوا فيها حيث تكتب وصية إثنين منهم، وإعتذارهما من أصحاب البيت على إستخدامهما، على الحائط. ولعوامل الطبيعة حقها أيضا في المشاركة في التخطيط وعدم تلويث الطبيعة (كما رفع عريضة بعض أصحاب الأراضي المحاذية لمكان الردميات في دبشة حمزة) أو الأراضي الزراعية أو الحيوانات الداجنة وغير الداجنة (مثل عصافير تستخدم مناطق محددة تأذت من ردميات الحرب إضافة إلى أزهار مثل البنفسج مثلا).

من يُصمم؟

بيت أبو حيدر، الذي يشبه بيوت كثيرة في عيتا، جميل برؤية تداخل المساحات والطوابق والدرج والشجرة. فالأخيرة شجرة الصنوبرة وجدت لها حيّزاً في البيت، ففي الطابق الأول لها دائرتها، تلتوي لتصل إلى السطح. وقد تكيّف تصميم البيت المبني تدريجياً مع الشجرة. بعد الحرب، يأتي زائر فيسأل أهل البيت: «والشجرة؟»، فيجيب أبو حيدر: «في جزع راح بالقذيفة، وهذا الجزع تلفن لي ابني بعد الحرب مباشرة يطمئن على الشجرة، ووصّاني عليها.» ففي الصيف، يجتمع الأصدقاء فوق السطح تحت رأس الصنوبرة، ولكل واحد منهم قصة، إن لم يكن شجرة قصص ليتشاركوها مع من يسأل عن سرها. مهتمون بمصيرها يسألون: «والشجرة؟». محظوظة الشجرة رغم أنها فقدت جذعا. فالتعويضات لم تنل منها، وستظل مصدراً لقصص وجلسات وأكواز.

هكذا، عندما تُصمم الدار كانعكاس لقصص الساكن، تلد قصص جديدة قريبة، سلسة، ومترابطة مع ذكرياته. أمّا عندما يمحي التصميم في البناء معالم القصص، ويكون ذلك عادة من قبل مصمم لا يعنيه المكان، فالقصص ليست قصصه، تبهت قصص المكان وتحتاج إلى وقت طويل لتستعيد ألوانها.

صارت التصاميم الجاهزة المُعدّة سلفا، والمنفذة بحسب «المصمم» هي النمط الذي يطغى. وتكون تفاصيلها كلها مدروسة ومرتبة حجرا حجرا، بحيث لا تترك بسهولة مساحة لمن يستخدمها في التعديل عليها وفق ابداعه الخاص. وكثيراً ما لا تكون هذه التصاميم نتاج تفاعل مع المكان. تبدو هذه التصاميم وكأنها تقتحم المكان وإيقاعه. فنسير بين تصاميم متكررة، مثلما نسير في الشارع بين الإعلانات العملاقة للدول والمنظمات المانحة، فتتكرر وتقتحم البصر والبصيرة.

في المقابل، ومثلاً في تصميم شعار صابون الغار في عيتا، قام فضل سرور، الخطاط، بتصميم الشعار عبر تواصله مع فكرة تصنيع الصابون. فخطّ في التصميم شعراً له حول عيتا الشعب وغارها، وهو انعكاس لاحساس عميق بالمكان، لا تصاميم مستوردة. فبعض تصاميم المهندسين في عيتا الشعب متأثرة بمجلات لتصاميم ايطالية، مرّت بالخليج ووصلت إلى عيتا الشعب. ومثلما كان الناس مصممين لبيوتهم سابقا، فإن البعض ما زال يقوم بهذه العملية منفرداً، أو بتواصل مع معلم عمار أو مهندس.

مكان الاستشهاد

خريطة لاقتراح ترميم البيت مع إحياء لذاكرة الشهيدين

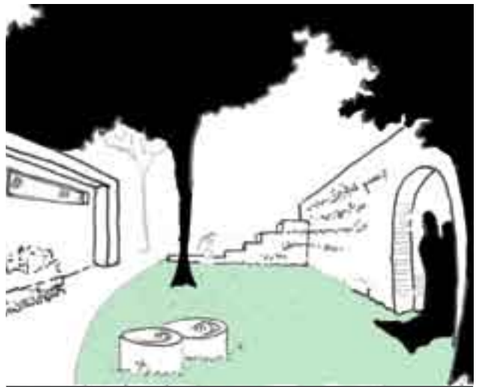

منظور للاقتراح يتضمن رسالة الشهيدين مكبرة على الحائط

الصورة كذاكرة للحاضر

يمتلـىء فضاء عالمنا، العالم العربي، كأي فضاء آخر، بالصور، صور متحركة (أي فيديـو) وأخرى ثابتة. نشاهدهـا في قنوات التلفزة التي ملأت نفس هذا الفضـاء ونتأملهـا أحيانـاً في مجلاتنـا وصحفنا وأحيانـاً أخرى نحـدق فيها عبر الانترنت. ولكن ثمة فرق بين فضائنـا هذا وفضاء الآخرين. صورنا هذه مـن جهة مليئة بصور الموت والدمار التـي من كثرة تكرارها اصبحت عابرة. ومن جهة أخرة هي صور غريبة علينا، مستوردة أو التقطت لتصديرها.

ترفض الصورة أن تكون مجرد وسيلة للترفية، أو للإحساس الآني والمشهدي بالتعاطـف نحو شخصياتها الذين باتو يُقتلون على شكل يومي. الصورة في فضائنـا هذا تمتلىء بالكومبارس، وكأن البشر يتحولـون الى اشياء، لا قصة لهم ولا حياة، مثلهم مثل المجهول الذي صورهم.

انطلاقاً من هذه الحالة السائدة، دأبنا نحن كمجموعة من المصورين المحترفين والهاوين في خلق مساحة نقاش وعمل يساهم في تقديم صورة مغايرة. رغبنا في أن نساهـم بتدوين حاضرنا الذي هو ايضاً ذاكرة لهذا الحاضر (أي حاضرنا) كمـا هو تدوين للمستقبل. أردنـا البحث عن ذاكرة صورية تستطيع ان تعبر عن أزمات وحياة يومية تعايش هذه الأزمات. صور تحاول تجسيد هذا المعاش من خلال نقل حكاية ما في الصورة ومصورها.

في هذه المنطقة التي تتسارع فيها الأحداث، حيث تُنهش الرؤية فتمنعنا من معايشة معانيها. أصبحنا معلقين بمشاهدة اللحظة والحدث.

مشروعنا هو البحث عن مساحة للصورة لجعلها جزء من سرد لحاضر معاش عبر منطق الرواية والقصة لتصبح الصورة جزءاً من الذاكرة. معالم هذه المساحة متحركة نرحل معها الى أمكنة جديدة وروايات مغايرة.

كانت حرب تموز والعدوان الاسرائيلي على لبنان عاصفة لم نستطع حتى الآن استيعابها أو تحديد حجم الآثار العميقة التي خلفتها، عدا عن التحولات التي ستنتـج عنها. الصور التـي التقطناها وقمنا بجمعها ليسـت بصور الدم أو الدمار، بل هي رواية لما قبل وما بعد الحدث، والذي يبدو فيه كمشهد خلفي أحياناً وغائب أحياناً أخرى.

ضمـن رؤيتنا هـذه، تتحرر الصورة مـن مفاهيم ملكية فكريـة المستوردة والمتناقضـة مع منطقها الإستهلاكي من جهـة (أي حقوق النسخ السائدة) وكإنتشار للمعرفة وللرواية الشعبية من جهة أخرى. الصورة هنا تصبح أداة متوفـرة للمعرفة العامـة وللبحث في خطوط التماس بـين الذاكرة والحاضر، وبنفس الوقت تصبح جزءاً منهما.

/ cinemayat.org سينمياة

الهوية ٠٠٤

زياد عنتر، © زياد عنتر
٢٠٠٦ تموز

في الخامس عشر من شهر تموز، وجدت نفسي في مدرسة استقبلت النازحين في صيدا، وإذ برجل يقترب مني ليطلب أن أصور له ابنه «صورة هوية» تمكنه من استخدامها للحصول على تأشيرة دخول. أعطاني ورقة تتضمن شروط صور الهوية.

فرح حتى اليدين
حوراء درويش من مجدل زون في صور

علي علوش، © جريدة السفير
٩ آب ٢٠٠٦

التقيت حوراء على الشاطئ. لم أتبين وجهها. كان الفرح ينهمر من يديها. إنه الفرح حتى اليدين. فرح ضد هول صور الدمار والدم الأشلاء، صور الحرب التي التقطها وتصفع بها الصحف أعين الألوف كل صباح.

لماذا البلدة التاريخية لعيتا الشعب؟

هل لأنها قديمة وتثير إحساسا ما، أم لأنها كانت عنوان المعركة والمقاومة وقت الحرب، أم بسبب بيوتها الحجرية التاريخية، أم لأن البلدة التاريخية لها علاقة بمواضيع مختلفة يمكن لبقية المناطق التعلم منها في البناء وثقافته والإقتصاد والنسيجين الإجتماعي والعمراني ، أم لأنها كانت الأكثر تهديدا بعد الحرب؟ ربما كل ذلك مع تفاوت في درجة كل عامل، لكن الذي كان شديد الوضوح هو أن البلدة التاريخية بأكملها معرضة للجرف بعد الحرب، ودون حوار، وهو ما إستدعى تدخلا سريعا.

خصائص للبلدة التاريخية

كان للعوامل «العضوية» دورها الأساسي في إنتاج البلدة القديمة، أي الاتصال المباشر بالسكان. هذه العوامل جرى تحدّيها من قبل إسرائيل والمصالح المالية وخطاب مديني له هيمنته، وما زال قائما حتى لحظة الكتابة. لقد قاومت البلدة القديمة تاريخيا إسرائيل، وبدايات المقاومة إنطلقت أساسا منها منذ نهاية الستينيات، وحتى الحرب الأخيرة. وقد كانت عنوان معركة منع جرفها بعد الحرب، وربما خسرت الأخيرة.

وكان للمصالح المالية أو للنفوذ دورا أساسيا في جرف أجزاء كبيرة من البلدة التاريخية بعد الحرب. فكما ذكر سابقا، في بيت ف. س، فإن جرفه جرى بتشجيع من سكان ونافذين من أجل توسيع الشارع المؤدي الى الجامع الفوقاني. لكن التوسيع أقترح تحديدا من هذا البيت لا غيره. وذلك بغض النظر عن الحاجة الفعلية لمثل هذا التوسيع للجامع نفسه أو لجيران. فغالبية مصلي هذا الجامع هم من المشاة وأهل الحارة.

لقد إستخدم جدل توسيع الشوارع في محاولة هدم أكثر من بيت أو الضغط عليهم من أجل التراجع في البلدة التاريخية. وقد أستخدم جدل بأن التراجع قانونيا عن الشارع يجب أن يكون مترين.

إن هذا النوع من التراجعات أقرب إلى المستحيل في البلدة التاريخية. فبعض الأراضي لا تزيد مساحتها عن الـ ١٠٠ متر مربع. هذا النوع من التراجع (٢–٣ متر) دفع في الأماكن الأكثر هشاشة.

ولكن من أين يأتي هذا القانون؟

تقرّ المديرية العامة للتنظيم المدني مخططات على مناطق بأكملها حيث تحدد التراجعات وعوامل الإستثمار. ولكن في عيتا الشعب، كانت الحالة مختلفة بعض الشيء. بعد تشكيل الدائرة العقارية في لبنان في العام ١٩٢٣، ابتدأ الفرنسيون مسح وتسجيل ملكيات الأراضي في لبنان وفقا لمناطق عقارية. في المناطق الجنوبية، وبوجود العمليات العسكرية الإسرائيلية، توقفت أعمال المسح، ومنعت فرق المسح من تأدية مهامها في اواخر الستينيات. اليوم، لم تمسح المناطق الجنوبية المحتلة سابقا، بما فيها عيتا الشعب[1]. ولا وجود لتشريعات مدينية أو خطط لهذه المناطق. وتحدد ملكيات الأراضي بحسب الجيران، وبدون وجود خرائط عقارية للمنطقة (لا يعني ذلك بأنه بالضرورة أمر سلبي).

كنتيجة لذلك، وبحسب مديرية التنظيم المدني، تخضع منطقة عيتا الشعب للقوانين المدينية للمناطق غير المسوحة، أي لتصنيف المناطق غير المصنفة! إن تنظيم المناطق غير المسوحة ينص على أن يجري التراجع عن الشوارع من قبل كل الأبنية (باستثناء الطرق التي تصل قرى بأخرى) بـ ٣ أمتار، وبعامل إستثمار سطحي بنسبة ٢٥/ ٥٠ (٤٠/ ٨٠ مؤخرا). الطريق الرئيسي الذي يصل القرى بعضها ببعض هو الوحيد الذي مسحه مؤخرا (بتمويل من البنك الدولي)، وجرى تصنيفه مع خطة تنص على أن يكون التراجع ١٢ مترا من منتصف الطريق.

باستثناء البيوت التي بنيت بعد التحرير في العام ٢٠٠٠ وتشكيل أول بلدية منتخبة بعد التحرير، فكل البيوت القائمة لا تسير وفق تشريعات مديرية التنظيم المدني، وبعض البيوت المبنية بعد العام ٢٠٠٠ تخضع لها. كما ذكر سابقا، فإن التأثير الإسرائيلي والنفوذ أيضا أثرا بشكل ما على تخطيط الشوارع مقارنة بالطابع

الحارة االفوقى / النسيج العمراني علاقة البيوت مع بعضها والمساحات المفتوحة

الأكثر عضوية سابقا. كما إعتاد الناس أن يبنوا بحسب علاقات وأعراف. بعد حرب تموز، نوت البلدية كسلطة محلية (متأثرة طبعا بالقوى الإجتماعية في القرية) تطبيق قوانين مديرية التنظيم المديني بالتراجع ٣ أمتار عند إعادة بناء البيوت المهدمة (تقريبا ٨٠٪ من البيوت)، أملة في التخلص من «الفوضى» وخلق «قرية نموذجية حديثة» كما عبّر كثيرون من البلدية وخارجها. أول ما حدث ذلك كان بتشجيع جرف البيوت على حواف الشوارع سواء كانت مصنفة للهدم أم لا (في بعض الحالات) من أجل توسيع الطرقات.

[1] تريستن خَياط. نظرة حول استخدام ملكيات الأراضي في المناطق الجنوبية المحررة (بالإنجليزية)، مؤتمر «الإستخدام الجيد والحكم المديني الصالح»، القاهرة ١٥–١٨ كانون الأول ٢٠٠٣.

ممارسة المكان في البلدة التاريخية والحرب

سيجري التطرّق هنا إلى الحارة الفوقا في البلدة التاريخية لفهم ما الذي ينظم إنتاج المكان في حيّ في عيتا الشعب. بالنظر الى الخارطة الحالية للحارة الفوقا، يمكن رؤية ثلاثة انواع من تقسيم حيّز البيت معماريا ونوعيته (التيبولوجيا). النوع الأول يحتوي على بيوت أشكالها الهندسية متوازية، يرافقها بيوت من حجر وباطون تطورت مع الوقت، ونوع ثالث مكوّن من امتداد بيت حجري. ثلاثتهم متداخلين بعمق، بمساحات وجدران مشتركة، وبالنتيجة مشكلين للشكل العمراني للحارة الفوقا.

يحدد قانون التنظيم المديني الحديث، المذكور سابقا، عوامل إستغلال المساحة الرسمية وتراجعا رسميا لا يمكن للبناء أن يتجاوزه. بينما القانون العرفي / غير الرسمي يحدد من جهة أخرى الممارسات المقبولة في المساحة والتي تقود عملية البناء

المساحات الخضراءوالمساحات المفتوحة في البلدة القديمة

من دون أن تتنبأ شكلها النهائي مع ضمان حقوق الآخرين في المكان.

يملك سكان الحارة الفوقا نوعا خاصا من الدار والحاكورة. تتطور هذه البيوت، على الدوام تقريبا، من غرفتين ممتدتين من الحجر. يعود تاريخ هذه الغرف للثلاثينيات، وبعضها قبل ذلك. للبيت المستطيل الحجري علاقة مباشرة بالأراضي الزراعية المحيطة به.

لم يكن هناك مفهوماً ثابتاً للمكلية في السابق كما هو الحال اليوم. كانت تتداخل الملكيات مع المشاع، وبلا حدود واضحة للملكية الفردية. قيبني الناس حيث يرون أنه يمكنهم البناء ضمن حيّز جماعي يحددونه أيضاً بحسب الأمان والأسس العائلية. المرة الأولى التي حددت فيها ملكيات الأراضي كانت عبر السجلات العقارية العثمانية لفرض الضرائب.

بدايات

في ذلك الوقت كانت عيتا الشعب أشبه بحقل صغير، تخشى الإعتداءات الخارجية (ولم ينته ذلك!). لذلك، كانت البيوت متلاصقة من جهة وبمساحات بينها من جهة أخرى. كان يحدث تلاصق بيت ببيت ولكن مع التأكد من وجود جهة مفتوحة للضوء والهواء. كانت الأسقف متلاصقة مكونة تجمعات تحيط بها أراض زراعية. كانت الجدران المتلاصقة يجري تشاركها مناصفة حيث يدفع الجاران لبنائها للتوفير إقتصاديا. كان هناك فتحات في الحيط المشترك بحدود النظر وقوفا، أبعادها تقريبا ٤٠ سم× ٤٠ سم و ٤٠ سم× ٦٠ سم. كانت تستخدم الفتحات أيضاً لقنديل الزيت للإضاءة وبذلك تتشارك كلفة الإضاءة. كانت كل البيوت أرضية، بإستثناء بيوت معدودة مثل بيت الشيخين سرور وهيدوس. البيت المقابل لهما، بيت باجوق، يملك سورا عاليا حول أرضه ليحافظ على خصوصية من كشف الطابق الأول له.

منذ الخمسينيات

مع بداية الخمسينيات، كان أول امتداد منطقي للبيت الحجري هي إضافة الرواق، وبالتالي الحاجة الى مساحة متداد انتقالية بين الخاص والخارج. لقد اصبحت نوعا من باحة أمامية حيث يجلس سكان البيت مع الزوّار. ومع الرواق، كان هناك اضافات اخرى متعلقة باحتياجات العائلة مثل خدمات اضافية، زواج جديد، نمو العائلة، وغيرها. كانت الإضافات الجديدة تخلق ساحة مع الإضافة العمودية على البيت الأساسي على شكل ل، حيث تشكل ساحة بين شكل ل. إن امتداد الساحة المفتوحة (وأحيانا شبه المفتوحة) مركزية للسكان مكانيا وفي الوظيفة. انها المساحة حيث تحدث نشاطات متعددة ومتشابكة وحيث يستخدمها كل أفراد العائلة، بما فيها اللقاءات الاجتماعية مع الجيران والزوار. هذه الاضافات هي تدريجية، وبالتالي إن النسيج الحالي تطور عبر طبقات تاريخية.

كل بيت يتكون من تراكم طبقات مضافة الى بعضها البعض مع الوقت. العمارة حيّة، مرنة وتتكيّف مع الاحتياجات المتغيرة لسكانها. فالنسيج العمراني ليس نتاج مجمّد من وقت سابق، ولكنه في تراكم. حافظ السكان على أجزاء قديمة إرتؤوا فائدتها لهم، وأضافوا طبقات أخرى لتتكيّف مع احتياجاتهم الأحدث في البيت.

في أحياء البلدة التاريخية، هناك علاقة بين الممارسات الإجتماعية وحيّز القرية. على سبيل المثال، أحد أسماء الجزء الجنوبي من البلدة التاريخية (الحارة التحتا) هو حارة سنيّة وبدرية. إمرأتان مسنتان (حوالي الثمانين سنة) ممن شكلتا مركزا أساسيا لتجمع شبه عام وخاص في الحارة قبل جرفها من الإسرائيليين. في الساحة المفتوحة لبيت إم نعمة، يلتقي كثير من السكان (كبار وشباب، نساء ورجال) في أوقات مختلفة من اليوم. أيضا، في غرفة بين بيتهما تجتمع نسوة لتحضير الخبز، تعريب التبغ، تحضير مونة والدردشة.

الحارة التحتا / علاقة البناء والمساحات المفتوحة (اقتراح)

الحرب وتغيراتها

بعد الحرب، رأى كثيرون من المسؤولين والسكان بأن إعادة الإعمار يمكن أن تكون فرصة، فرصة لتحسين الأوضاع، تطبيق القوانين، التخلص من «الفوضى»، والتخطيط. في المقابل، يقول المعماري والكاتب جاد تابت، في سياق حديثه عن إعادة إعمار وسط بيروت ومن تجارب عالمية، بأن هناك دوما علاقة ما بين الحرب ومشاريع التخطيط الجديدة، حيث تفتح الحرب طاقات لمخططات مدينية جديدة قد تدمّر أكثر من الحرب نفسها في خضم عملية إعادة البناء (جاد تابت، سلسلة «الإعمار والمصلحة العامة»).

إن وجود ترخيص الإعمار والخطاب المهيمن للتخطيط يدفعان بإتجاه التراجعات كيفما أتفق، دون لحظ الخصوصيات الاجتماعية للاحياء والبيوت، من أجل توسيع الشوارع. في المقابل، ثمة ميل بين الناس، وخصوصا مع موضوع التعويضات المالية، لتغيير تقسيمات البيت وإحداث تراجعات بين البيوت المتجاورة. في العقارات الصغيرة والمتوسطة المساحة في البلدة التاريخية، وهي كثيرة، بدأ هذا التغير يُحدث مشاكل في الضوء والتهوئة، في الكشف والستر، وبالترافق مع إنزياحات أساسية لنسيج الأحياء. ولذلك أيضا انعكاساته على موضوع الذاكرة، وعلى كيف يستخدم الناس المكان.

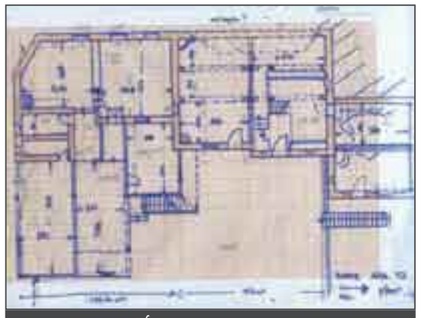

خريطة بيت حجري مع الاضافات اللاحقة لأقسام باطون (موجود)

الحارة التحتا / قاطع لعلاقة البيوت مع البيارة، الحاكورة ومع بعضها البعض من خلال تصميم البيت الفردي (اقتراح عند إعادة البناء)

وهذه الانزياحات الأساسية في النسيج تحدث إنقطاعات على المستوى الإجتماعي أيضا. فهناك من قرر الخروج من الحارة والبناء في مكان آخر، لأن البيوت الأرضية التي كانت محيطة به صارت الآن طابقين وأكثر، وهي أضخم بحجمها من السابق. وهناك من يفكر ببناء سور إرتفاعه ٤ أمتار! وكثيرون محتارون، ويفكرون ببيع أراضيهم. مع قدرة التقسيم الحديث على فتح فضاءات بين البيوت، فإن خصوصية الدار يمكن أن تنتهك، مؤدية إلى تدهور وظيفة الدار أو الساحة وتحدث إرتباكا في الممارسات المكانية. ويمكن أن يؤدي ذلك إلى تدهور نوعية المكان. هذا التدهور هو بشكل أساسي نتاج عقلية «حديثة» عبر بناء أبنية تنظر الى الخارج وسط نسيج مكون من طرق وزواريب متداخلة مع الممارسات المكانية للدار.

ولا وجود لإشارة حالياً بأن العملية غير الرسمية التاريخية للبناء في عيتا والمتوارثة عبر الأجيال، مدركة من قبل مهندسي البناء. بناءا على هذا الفهم للأحياء التاريخية، ثمة حاجة الى فهم العلاقة بين المكان المجسّد بناءا وتقنيات البناء، وطرق عيش المكان (الساحة، استخدام الأسطح، الامتداد الزراعي للبيت، الخ)، علاقات الأحياء، ومناحي الحياة الزراعية (مثل المونة السنوية، الحرفيات).

اللقاءات العامة

كانت اللقاءات العامة (لقاءان في الحسينية في تشرين الثاني وآذار الفائتان) تدعى بإسم البلدية، ليحضر أعضاء بلدية يناقشون الناس بشكل عام إضافة إلى مناقشتهم فرديا في البلدية. وكما قال أحدهم في اللقاء، والذي كان فيه نقاشا حول مواضيع مختلفة منها دور البلدية، بأن ذلك هو جزء حضاري من أن نتمكن ونناقش مع بعضنا البعض. في اللقاء الأخير، قامت ف. ج. بالإحتجاج، مع عدم إعطائها الحق بالكلام، وبالصراخ داخل اللقاء: «مع مين بدنا نناقش؟» وإنسحبت مقهورة. لكنها عبرت عن رأيها، وإن بعصبية من دون مقدرتها على التواصل. في المرة التالية، يمكن أن يجري التواصل.

في بعض الحالات أقدمت البلدية على الإستعانة بلجنة من الوجهاء لتتابع الأمور. ولكن الأمور أصعب وأكثر تعقيدا من ذلك. فلا قسم التخطيط والهندسة، ولا لجنة وجهاء، يمكنهما إلاّ التسهيل وتقديم إقتراحات. فثمة وجهة نظر تقول بأن كل موضوع من الأفضل أن يشارك فيه الناس المعنيون أنفسهم برعاية البلدية. يمكن أن يدعوا، ويقدم لهم إقتراح، ويستمع إلى إقتراحاتهم، والوصول إلى نتيجة. وبالتالي فإن الناس تقترب من البلدية بدلا من أن تشعر بأن البلدية بعيدة عن الناس. وكانت مبادرة البلدية لعقد لقاء عام مرتين أيضاحا بأن الناس يمكنها أن تتناقش وتختلف، ولكن كثيرون يكونوا قد عبروا عن أرائهم أمام بعضهم البعض، وهو يكسر من حدة إختلاف الآراء، ويركز على المشترك رغم الإختلاف. وهي عملية تسير ببطء وتقدم نموذجا مختلفا بالكامل عمّاً كان عليه الوضع وقت الإحتلال الإسرائيلي.

موضوع في نقاش: التخطيط بأطراف مختلفة

أحد المواضيع التي دار فيها نقاش واسع في اللقاء العام الأخير في الحسينية هو توسيع الشوارع من أجل السيّارات في البلدة التاريخية. كان هناك رأيان، يجمع بينهما ويختلفان أيضا. الرأي الأول يقول بأن الشوارع باتت ضيقة على السيارات التي كثرت مؤخرا، وأنه يجب توسيعها وتراجع أصحاب العقارات عن الشارع، وهو رأي كثيرين مثل المختار وبعض أعضاء في المجلس البلدي وسكان. الرأي الثاني كان يقول بأن الشوارع ليست للسيارات فقط، وإنما هي إمتداد إجتماعي للبيوت، ويستخدمها الناس (أصحاب البيوت، المسنين، الأطفال) بأشكال متعددة، وتجعل إمكانية وجود أماكن لا تهددها سرعة السيارة. مثلا يمكن للأمهات الإطمئنان إلى أن أولادهم يلعبون في الطريق دون خوف كبير، والتفرغ بالتالي لأعمال أخرى.

ثمة رأي ثالث متعلق بالمقاومة، وقد عبّر عنه بسرعة أمام البلدية والمختار الفريق المكلّف من قبل حزب الله مؤخرا. فيقول هذا المنطق بأن هذه البلدة التاريخية بسبب طبيعة الأزقة فيها وطرقاتها وتلاصق البيوت من جهة ووجود مساحات من جهات أخرى ساعد المقاومين بشكل كبير على التصدي للإسرائيليين وآلياتهم التي لا تتسع لهذه الطرق.

إن هذه الآراء، على أهمية كل منهما، لا يمكنها أن تكون بمعزل عن المتأثرين بالموضوع. فإذا كان المهم من التخطيط هو إستخدام أفضل للمساحات، فمن يحدد الأفضل هم المعنيون بالموضوع أساساً. إننا أمام حالة تجتمع فيها جهات مختلفة حول تخطيط الشوارع: البلدية وقسم التخطيط والهندسة (وهما ليسا من سكان المكان عموما)، المختار، أصحاب السيارات المارّة بالمكان، أصحاب البيوت مستر خين في بيوتهم أو يعملون فيها، الأمهات والآباء الأطفال، المترجلون في الطرق، مصلو الجامع الفوقاني (عادة سيرا على الأقدام ومن الحي نفسه)، الزوّار سيرا على الأقدام أو بسيارات، من يجلسون في الطريق (وهي عادة موجودة خصوصا للكبار)، المقاومون ومحتضنو المقاومة من المدنيين، وغيرهم. ولكن بشكل اساسي، بعيدا عن هذا الراي أو ذاك، ذاك المزاج أو هذا الإحساس، فإن مجموع سكان المكان هم المعنيون بالدرجة الأولى بذلك، مع أخذ «الصالح العام» بعين الإعتبار. لذلك، فإن ما يمكن تلمسه بسهولة هو مقاومة كثيرين من أصحاب بيوت ذلك المكان توسيع الطرقات حتى لو كانوا يشعرونها ضيقة، وهم من مستخدمي المكان بسياراتهم (علما أن ليس جميعهم يملك سيارات). وبالتالي، يمكن فهم ذلك لأن عقاراتهم صغيرة بغالبيتها (أكثر من نصفها أقل من ٣٠٠ متر مربع). وأي تراجع عن الطريق في البناء يعني أن عقارهم سيصبح أكثر صغرا. ومقارنة قضاء وقتهم الأطول في البيت مع السيارة يعني أن غالبيتهم يفضل إتساع مساحة البيت على إتساع مساحة الطريق للسيارة. ففي هذا المكان جرى البناء بطريقة تستفيد بالحدود القصوى من مساحة الأراضي. ويعني ذلك أن توسيع الطرقات سيؤثر بشكل كبير على النسيجين العمراني والإجتماعي لهذا المكان (أي خروج كثيرين من أصحاب العقارات الصغيرة خارج البلدية، وحصل جزء منه). وهذا المنطق للنسيج العمراني والإجتماعي يقود إلى منطق المقاومة بدوره في حال إعتداءات إسرائيلية جديدة. ولكن في الوقت ذاته لا يمكن تجاهل منطق إزدياد عدد السيارات. وبذلك يجب العمل على توفير بدائل مثل مواقف سيارات صغيرة في المكان. والموضوع الأهم والأعمق هو توفير باصات نقل عام مريحة وكبيرة وبسعر متدني بين بلديات المنطقة والمدن. فهو ما يقلل من الحاجة للإعتماد على السيارة، ويوفر ماديا على سكانها، وهو موضوع يجب متابعته مع البلديات والجهات المعنية.

ملف الحجر: ترميم البيوت الحجرية

للأسباب الواردة سابقا عن أهمية الحارة، عملت المجموعة على منع الجرف فيها. هناك من أراد جرف بيته التاريخي، وإن بتردد. في أول بيت جرف كانت المجموعة موجودة تحاول منع ذلك بالتواصل مع صاحب البيت، لكن أول تواصل جرى بينما كان البلدوزر يهدم البيت. بالطبع، لا يمكن أن يحدث التواصل على إيقاع البلدوزر. لاحقا، تحدث صاحب البيت بأنه لم يكن على علم بمشروع إعادة تأهيل البيوت الحجرية. وقد كان دافعه الأساسي لهدم بيته هو الحصول على تعويض يراه وافرا. فهناك من كان يشجع على هدم البيوت التاريخية مقابل التعويضات التي يرونها وفيرة.

فقد كان التوجه، ونحن في حوار حوله، إذا ما كان ملائما منع جرف البيوت التاريخية إذا أراد أصحابها ذلك. فالقضية تخضع لوجهتي نظر. أولها، هو أن هذه البيوت تاريخية وتعود ذاكرتها لأناس كثر، وهي جزء من الذاكرة الجماعية لعيتا الشعب بالإضافة إلى الذاكرة الفردية، فلا يملك رجل واحد صار صاحب البيت قانونيا مؤخرا التصرف بها بفردية، وخصوصا أن حتى العائلة الواحدة فيها وجهات نظر مختلفة. ويعزز وجهة النظر هذه بأن المبدأ الأساسي هو إعادة بناء البيت كما كان، وليست الأولوية ولا الغاية تمويل عملية إعادة البناء من أجل مخططات جديدة، وهذه كانت وجهة النظر المعبّر عنها كلاما من قبل المكتب الإستشاري في بيروت للدولة المانحة. فالمطلوب إزالة آثار العدوان، لا البدء من مكان آخر، يمكن أن يتابع العدوان

بطريقة ما عبر تقطيع الأحياء وذاكرتها ونسيجها العمراني والإجتماعي.

وجهة النظر الثانية تقول بأنه لا يمكن الفرض على أصحاب البيوت بعد الحرب سلطة تمنعهم من التصرف ببيوتهم، وخصوصا أن فيهم من يرى في الأمر فرضا لسلطة على بيته الخاص الذي يحق له التصرف فيه كما يشاء. ومع إقتناعنا بوجهة النظر الأولى، وتماشيا مع الثانية، فقد إتخذنا قرارا بالثانية! ربما هو حذر دائم من ممارسة سلطة يعتبرها البعض تعسفا خصوصا بعد الحرب. وكان في وجهة النظر هذه ردّا على فرض الخيار. فقد إعتبرنا أن آلية الكشف المقررة من قبل الدولة أو عمليا على الأرض لم توفر خيارا لأصحاب البيوت التاريخية، ولم تلحظ بيوتهم، وبالتالي فرضت خيارا واحدا هو ضمن «الترميم» أو «الهدم». وبما أن خانة «ترميم» القريبة من ترميم وإعادة تأهيل البيوت الحجرية هي أقل مردود ماليا من خانة «الهدم»، فكانت حتى كلمة ترميم صعبة الإستخدام. والمجموعة جادلت بأنها تقوم بتوفير الخيار الثاني لأصحاب هذه البيوت والذي أنتزع منهم. وكان ضغط كثيرين من الناس، بعد تشجيع من أطراف مختلفة، يقود إلى مثل هذا الجدل دفاعا عن الموقف في وقت شديد العصبية والتوتر. فقد كانت المجموعة وحيدة في التحدث عن هذا الموضوع، ودون إهتمام عملي من جهات أخرى فاعلة في عيتا الشعب وخارجها.

في تفاصيل خيار الترميم و نتائجه

كان الميل للخيار الثاني مراعاة للواقع وسخونته من جهة، وتحسسا من فرض سلطة يراها البعض تعسفا. ومع الميل للخيار الثاني، عنى ذلك التركيز على التواصل ليكون وسيلة الإقناع. فجرى التواصل مع أصحاب البيوت سواء بشكل فردي أو جماعي في الحسينية كمشروع يخص الجميع والبلدة بأكملها. وبذلك جرى التواصل مع ذوي خبرة بإعادة تأهيل البيوت الحجرية أوضحوا أن البيوت يمكن أن يعاد تأهيلها لتكون متينة وكأنها مبنية من جديد، ويعاد تأهيلها بشكل مريح وللإستخدامات الحالية المستجدة وتلافي سلبيات سابقة بها، وهي لا تكلف نقودا للترميم مثل هدمها وإعادة بنائها. وجرى التفريق بين الترميم وإعادة التأهيل حيث أن الترميم قريب من المدرسة المتحفية أو الأثرية بإعادة البيت كما كان بغض النظر عن التطورات المستجدة، أما إعادة التأهيل فإن فيها ترميم وتجديدا في الأن ذاته ضمن المحافظة على الطابع العام.

وجرى التأكيد والتذكير بما يعرفه سكان هذه البيوت من أنها تمتلك خصائص عملية لا تتوفر ببيوت الباطون مثل توفير الدفئ والبرودة تواليا في الشتاء والصيف، وقليلة الرطوبة، وبالتالي أقل إستهلاكا، وأكثر أمانا بسماكة طاقي الحجر الصخري «الكلين»، وأكثر جمالية وإلتصاقا بثقافتهم ومرتبطة بذاكرتهم.

وجرى العمل تطوعا بالطبع مع كل صاحب بيت حول تقدير كلفة إعادة تأهيله (حيث فقدت المعرفة المحلية السابقة ببناء هذه البيوت)، ورسم تصميم جديد يراعي مستجدات لإستخدام البيت. وباختصار جرى:

- التواصل مع كل عائلة من العائلات القاطنة في البلدة التاريخية
- رسم خرائط و توثيق كل البيت الحجرية و ذات طابع ضمن النسيج
- تصميم اقتراحات لما يمكن أن يصبح البيت ضمن عملية الترميم
- الاجتماع مع الأهالي في الحسينية،
- توزيع نشرات توضيحية صغيرة توزع على السكان حول المستجدات والإقتراحات ونقاشها معهم
- الاتصال بالإعلام إلى حد ما وبشكل سلبي أحيانا
- أستحداث قسم التخطيط والهندسة في البلدية
- التنسيق مع جهات معنية بالموضوع سواء حول ترميم البيوت الحجرية أو غيرها من المواضيع
- البدء بورش الهدم الجزئي في عملية الترميم و الترميم بحد ذاته لأحد البيوت لاظهار امكانية عملية الترميم

وبعدما تطور النقاش بأخذ هذه العوامل في عين الإعتبار، كان كثير من أصحاب البيوت يطمئنون إلى خيار إعادة ترميم بيوتهم الحجرية، ووقع كثيرون على عريضة تطالب بإعادة تأهيل بيوتها ضمن آلية تعويض مناسبة في شهري كانون الأول والثاني ٢٠٠٦. وهنا جرى إقناع الدولة الممولة برغبة السكان بإعادة تأهيل بيوتها، وتكيّفت بدورها مع ذلك وتبنت الموضوع. لكن بما أن سلطة كشف الأضرار لم تتواصل بشكل جيد ومستمر مع السكان إثر ذلك، فقد عمد السكان أخيرا للعودة إلى أساليب رد الفعل والطرق الملتفة لفرض الأمر الواقع والضغط على سلطة كشف الأضرار بإعطائهم تعويضا ماليا مناسبا، وهنا تداخلت الوساطات والزعماء في تقرير العملية بتغليب عامل ضروري على العوامل الأخرى. ويصبح خطاب السلطة ونظرتها تجاه السكان بأنهم «محتالون، غير صادقين، غير معنيين،...» مثلا دون تحمل المسؤولية بغياب التواصل الفعلي والمستمر مع السكان ومع المّول. وبذلك هدمت كثير من البيوت، كفرض أمر واقع، في سبيل الحصول على تعويضات مالية مناسبة أو إضافية. لو أن عملية التواصل إستمرت بشكلها السابق على مدة الستة أشهر اللاحقة للحرب لجرى على الأرجح إعادة تأهيل البلدة التاريخية وإن كانت هدم عدد محدود من البيوت.

كان أول قرار لحزب الله حول المحافظة على البيوت التاريخية الحجرية كان في نهاية كانون الأول ٢٠٠٦، لكنه إفتقد إلى متابعة على الأرض، وكان حينها أول إستجابة لنشاط من دافعوا عن الموضوع في عدّة قرى وأماكن، وتواصلهم مع أناس من الحزب من بنت جبيل وعيتا الشعب وبيروت وصور وغيرها.

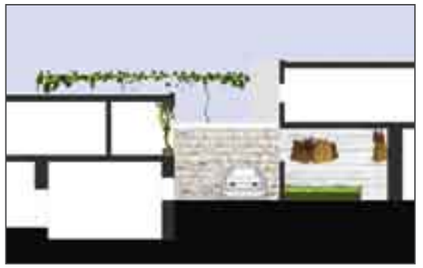

التوجهات العامة

لذلك فإن عملية وضع توجهات عامة لهذا النسيج العمراني في عملية إعادة البناء بعد جرف أحياء بأكلمها لا يمكن أن يكون سليما إذا جرى أولا بطريقة فردية من قبل صاحب كل بيت (سواء بتطبيق قوانين التنظيم المدني غير المرعية الإجراء في هذه المناطق)، وثانيا بغياب التواصل بين الجيران وسكان الحيّ حول توجهات عامة تخصهم.

فعلى المخطط أن يلعب دور المسهّل لهذه العملية، عندما تغيب بين السكان في حال أراد الجميع البناء بفردية دون التواصل مع محيطه، بإستنباط التوجهات العامة من داخل هذا النسيج العمراني والإجتماعي وتسهيل الحوار بين الجيران
وخصوصا أن بعض أصحاب البيوت بدؤوا بالإعمار قبل غيرهم بطرق فردية، ليس فيها تواصلا سليما مع محيطهم في كثير من الحالات، وتؤثر على النسيج العمراني بالتالي بطريقة غير سليمة. وقد إنتهينا من إستنباط التوجهات العامة من داخل النسيجين الإجتماعي والعمراني وآلية التواصل الخاصة بها، والتي جاءت متأخرة (رغم أن أول دفعة من التعويضات لم تنته بعد).

إضافة إلى ذلك، اتخذ «حزب الله» مؤخرا قرارا بتكليف مكتب هندسي بمتابعة الإهتمام بشكل خاص بإعادة تأهيل البلدات القديمة ونسيجها العمراني، وفرز مهندس منه عبر المؤسسات المنتخبة في البلدية إلى جانب قسم التخطيط والهندسة في البلدية كفريق يتابع موضوع رخص البناء ووضع التوجهات العامة لإعادة البناء (وهي عملية في طور البداية لا يمكننا التحدث عن نتائجها بعد).
ومن هنا كان أخذ الخطوات التالية:

- التأكد من أن نوعية المكان والمساحات في النسيج العمراني توازي تلك الموجودة قبل الحرب.
- بأن يدرك البناؤون روحية هذه التوجهات، وألاّ تكون متّبعة كضوابط بصيغة حسابية بحتة.
- تنسيق أصحاب البيوت، في أحياء تعرضت للجرف، مع بعضهم البعض (البيت وجيرانه) خلال إعادة البناء.

«الضوابط»

وقد أستنبطت هذه التوجهات بشكل أساسي حتى الآن من الخرائط (خرائط في لحظات تاريخية محددة ومتأخرة، وهو يشكل نقص بفهم تاريخي أكثر عمقا لا يمكن تجاوزه إلاّ بالتواصل مع أصحاب البيوت ومعرفة المراحل السابقة وتطورها) التي تظهر التلاصق بين البيوت، والساحات والحواكير، وعدد الطوابق، ونسب البناء، والكشف والستر، والطرق، وغيرها حيث يجري عبرها وضع توجهات عامة لما كان قائما يسمح بإمكانيات تجديد داخل هذه التوجهات العامة. ونحن في حوارات دائمة داخل المجموعة ومع السكان ومعنيين بموضوع التخطيط حول كيفية إستنباط هذه التوجهات العامة وآلية التواصل وتسهيلها بين السكان.
فمثلا هل يكفي إستنباط هذه التوجهات العامة بشكل اساسي من خرائط سنة أو سنوات متأخرة محددة، ودون الحاجة إلى تسهيل التواصل الجماعي بين السكان، أم أن التواصل الجماعي (عبر جلوس الجيران مع بعضهم بورش عمل أو نقاشات) هو مكمّل اساسي لهذه العملية؟
والضوابط العامة تتكيّف وتتغيرّ مع خصوصيات الموقع، وهي:

- البناء ضمن نسبة قصوى تعتمد على مساحة العقار (مستنبطة مما كان قائما). فمثلا، في عقار تصل مساحته إلى ١٢٠م٢، يمكن البناء على ٨٥٪ من مساحة الأرض، بينما ١٠٪ على الأقل هي مساحة غير مبنية أو حديقة مجموعة. وفي عقارات أكثر من ٣٥١م٢ يمكن البناء على ٦٠٪ مقابل ٢٥٪ مساحة غير مبنية.
- كل البيوت لها الحق بالبناء تلاصقاً من جهة، ولها الحق بعدم التراجع عن الشارع.
- لتتمكن من فتح شباك، كل التراجعات عليها أن تكون ٤،٥م على الأقل من الحد، وبعرض أدنى ٥م، حيث تحتاج كل الغرف المستخدمة لشباك على الأقل (مع امكانية استثناءات للعقارات الصغيرة حيث لا مجال لبُعد ٤،٥م٢).
- كل البيوت تملك كحد أقصى طابقا أرضيا، وطابقا أولا:
  .يمكن للبيوت الاستفادة من انحدار الارض ، وبناء طوابق اضافية ضمن الانحدار اذا لم تتعد الطابقين فوق مستوى الشارع.
  .في بعض الحالات يمكن بناء ٣ طوابق اذا كان مجموع مساحة الطابقين العلويين مساوي للطابق الارضي.
- لتشكيل البيت ووضعه بطريقة يمكنها خلق مساحات مفتوحة، وحديقة للتأكد من تأمين أقصى اضاءة وتهوئة ممكنة للبيت وجيرانه.
- السيارات:
  .لمساحات اراضي اكبر من ٢٥٠ م٢، على البيت العائلي ان يحوي مصّف سيارة داخل العقار نفسه.
  .للعقارات بين ٢٠٠– ٢٥٠ م٢، يلزمها على الاقل موقف واحد داخل العقار.
- العقارات الجديدة المفرزة الممكنة، لغايات البناء، هي ١٢٠ م٢. أية عقارات مفروزة جديداً يحتاج إلى حق مرور عام.

خريطة لبعض العقارات والبناء في البلدة القديمة قبل الحرب

من الصعب تلخيص ما سبق بعبارات مختصرة ومنسقة. فالنص يحمل حواراته. وتأكيداً على ذلك، فمع الألم الذي رافق رحلة ما بعد الحرب، هناك في الآن ذاته أمل بناء من جديد، وإرادة حياة في مناطق تريدها اسرائيل مهجورة وراكدة. والأمل أيضاً أن يكون هذا النص، باضاءته على نقد للعملية، فاصلة افتتاحية لفعل جديد. فعملية إعادة البناء، وتأملها، لا يمكن فصلها عن المقاومة بمفهومها الواسع.
وأخيراً –إن كان للحروب الإسرائيلية نهاية– فعيتا الشعب ليست قرية حدودية نائية تقرأ عنها، بل أنها تتواصل وتفتح حواراً مع القارئ أينما كان.

هذا المقال هو نتاج كتابة جماعية، ومن ضمنها الشخصي. وتختزن أصوات متعددة من عيتا الشعب وخارجها، بما فيها قراءات متعددة. والمقال عبارة عن ممارسة جماعية يتبع بوعي أو بتلقائية منهجية «البحث في الفعل»، ولا يخضع لمنطق «الملكية الفكرية» أو التجارية ولا لمنهجيات البحث السائد.
وإن كان لا بدّ من إسم للتعريف، عدا عن اسماء داخل النص، فممن شاركوا في انتاج المقال (كلاماً، تصويراً، وتصميما): اسماعيل الشيخ حسن، عبير سقسوق، عمر سعد الدين، نادين بكداش، فهد دلول، نزار مرتضى، كنديس رايموند، كويفا باترلي، وماهر أبي سمرا، سحر كبة، جود خصاونة، صبا عنّاب، ايزابيل قيرهارت، هاني منيف.